843:M451aAk

موروا ــ اندره

اجواء .

843
M451aAk

JN 1 54

MR 5

AG 28 '57

-1 OCT 1973

1 JUN 70

19 ... 1974

843
M451cA

اندره موروا
عضو المجمع العلمي الفرنسي

أجواء

تعريب
سعيد القضماني

مطبعة النضال بدمشق
١٣٦٨ - ١٩٤٩

Cat. 16 Dec. 53

الطبعة الاولى — الحقوق محفوظة

مقدمة

بقلم الاستاذ فؤاد الشايب

منذ ثلاثة عشر عاماً ، قدم الاستاذ سعيد القضماني للمكتبة العربية ، مجموعة ثمينة من محاضرات (اندره موروا) تناولت أوضاع العائلة وما فيها من روابط الحب ، والزواج ، والصداقة ، والمصلحة والاحترام ، وما لها من اتصال بالمجتمع الواسع ، والحياة الكبرى على ضوء ماطرأ من أحداث ، وما استحدث من مفاهيم بعد الحرب الكبرى الاولى ، ووضع للمحاضرات عنوان (طريق السعادة) واختارني ، كصديق له ، وشريك في حب الكاتب الفرنسي (موروا) ان اقدم لهذه المجموعة من المطالعات ، بمقدمة تبسط شيئاً من حياة الكاتب والكتاب .

وجاءني هذا الصديق القديم ، منذ أيام ، يحمل مخطوطاً لتعريب كتاب (موروا) الشهير – كليا – ونسخة من (طريق السعادة) ، لاكتب المقدمة الثانية مستعيناً بما كتبت في المقدمة الاولى .

يقيناً أنني نسيت (موروا) منذ أن حولت عن نفسي تيار الثقافة الفرنسية، قبيل اوائل الحرب الاخيرة ، مدفوعاً باسباب وعوامل شتى ، منها نفسية ، ومنها ما يمت بصلة الى طبيعة الخمود الفكري في فرنسا أثناء الحرب وما بعدها . فعندما أتاح لي صديقي الاستاذ القضماني هذه العودة الى المنابع الثقافية الاولى ، أحسست بفتوة من صمد الى الطريق ثانية ، عشرين عاماً الى الوراء ، وتسللت الى غبطة ما لبثت ان غمرت كياني ، ونشوة أخذت تهز كل جاف من اوراق خريفي ، ثم طوفت في شبه غلالة أمام عيني صور حلوة من ماض بعيد ، ليست كلها ، على ما أرى ، صفحات الكتب التي كنت اقلبها بلذة وحلم ، بل ايضاً صفحات الحياة نفسها التي كان الشباب يختضنها بعنف ، ويلتهمها بلا مضغ ، فما يتذوق لذاذاتها بتمهل ، ولا يقف عندها بتبصر وتأمل ، وليس كعودة صورها في اطياف ذكريات أحياء لمجد جمالها ، وفتنتها ومرحها في نفس كالحة ، وقلب مهجور ، هذه الصور المحبية لحياة دفينة في الحجب منذ عشرين عاماً ، تمر اسرابها بي ، وتبعث أرجها كزهرات يانعات

هامســـة في أذني بلغة بروست (اقبض علي وأنا امر ... اذا كانت لديك القوة ، وجرب أن تحل لغز السعادة) .

هرعت الى صناديقي العتيقة ، ففتحت مغاليقها ، ورحت أنبش أوراقها ،وانفض غبارها ، واتنسم رائحة الحياة التي لاتبلى في أكفانهـا المهترئة البالية ، وكنت كلما عثرت على كتاب مما اذكر انه مقرون الى صورة من صور الماضي العجيب ، شعرت أنني ازحت عن صدري الحجارة ، واخرجت أجزاء حياتي من تراب القبر . واخـذت اقرأ صفحات من ذاك الادب الذي كان يجري تكتاراً الهياً في عروق الصبا . وكنت انتقل بين الكتاب والآخر ، بشوق من يعانق احبابه بعد غياب طويل فلا يلبث فكري على صفحة أو جملة ، الا بقدر ما تلبث قبلة على شفتين .

لقد بلغت (فردوسي المفقود) ضالا ، دون أن أسلك اليه أي سبيل . كنت أتابع (موروا) في ذهني ، لاعيش في أجوائه بعض الوقت ، وأتمكن من فهم الرجل الذي نسيته ، فقادني جناحاي ، بغريزة السنونو تهجر الجبال ، مفتشة عن الدفء ، الى هذه الحالة النفسية من تجردي عن تيار الحاضر ، ومشاغل المستقبل ، وعودتي الى كنف الماضي المبعوث ، هذه (الطوبى) لا تدرك الا بالفن ، ولا يمكن أن يصفها بعظمة وصدق الا عظيمان صادقان ،مثل (شوبنهاور)و(فاليري) .

. . .

ليس (موروا) في تاريخ الادب الفرنسي الحديث ، ذلك العالم السحري ، المهيب الذي تتسرب اليه بكل رهبة وخشوع ، شأنك عند ما تقف في عوالم يحرك عناصر الحياة فيها، روائيون وسحرة ، مثل اناتول فرانس ، ومارسيل بروست ، واندره جيد ، وبول فاليري ، ان (موروا) اذ يؤلف ، لا يتركك وحدك ليحلق ، ولا يفلت يدك ، ليسلمك الى مفاجئـــات الطريق ووحشة السرى ، بل انك لتحسه الى جانبك أبداً ، يؤنسك أو يواسيك ، في نزهة طولها ثلاثمائة صفحة من كتاب ، فاذا انتهت النزهة ، وطويت آخر صفحة من كتابه ، يطيب لك أن تتكىء وتغمض عينيك ، مسترجعاً مراحل النزهة القصيرة ، والرجل بعد الى جانبك يبتسم لك ببراءة قائلا : أرأيت ما أيسر معرفة الحياة ؟! .

ليست الحياة حقاً ، بنظر موروا ، معقدة ، يستعصى حلها ، ويغلق دون الناس لغزها ، وعلى هذا ، فما تراه بحاجة الى ابداع فلسفة ، واختراع مذهب ، ليوغل معك في تبسيط الحياة واكتناه سرها . مضيفاً اليهـــا الغموض والسر والاختلاط ، بل انك لتعجب كيف يحلل طبيعة الانسان وملابساتها ، حتى لتهم أن تظن بان معجزات موروا الفنية ، بحسن الاتيان بمثلها كل محاول ، فـ تلبث أن تتبين دقة النسيج ، وامتناع هذا الصرح الذي بنته أنامل رقيقة ، وثقافة ثرة الينابيع .

بهذا السير المشبع بروح المرافقة ، يأخذ (موروا) بيدك الى أجوائه الروائيه ، أو الى دراسات تاريخية في حياة الامم ، وحياة الرجال . وليس مثل (موروا) في تاريخ الادب الفرنسي الحديث ، محدثا بارعاً ، مجرداً عن خصومات المذاهب الدينية والفلسفية ، حكما في نزعات الافراد والجماعات ، ومرجعاً من مراجع الصدق والامانة ، والاخلاص للفكر والحرية .

قد يقال ان تأثر (موروا) بالروح الموضوعية في الادب الانكليزي ، وهو من دارسيه

المشبعين بثقافته ، قد كون في أدبه عناصر الصبر ، والتجرد، والنظر في الامور نظرة واقعية حرة، واصبح من ذلك القول ان (موروا) بنظرته الادبية التي هي فلاة المفكرين الاحرار ،متجرد ، نزيه ، وان هذه الفطرة راحت تنشد غذاءها في صفحــات مجيدة من تاريخ الانكليز في أدبهم ومعيشتهم . والحق ان (موروا) في تاريخ الفكر الحديث ، أحد النادرين من احفاد الروح الانسكلوبيدية الفرنسية الحرة التي بدأت بفولتير ، وتحدرت منهــا في الزمن الحديث عناصر شتى متنابذة ، متناقضة متراوحة بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، يفخر كل منها بشرف الانتساب ، ويزعم لنفسه النبوة الحقة ، وليس كموروا ، بحرية تفكيره ، وصدق موضوعيته ، واحاطة ثقافته، وتجرده عن زعازع العصر الحديث ، كيس كمثله ابناً باراً ، وحفيداً يشرف تاريخ حرية الفكر، ويسمو بالمفكرين عن تسخير التاريخ والفن في سبيل معسكرات المذاهب والفلسفات .

وايجازاً للصورة أقول : لن تجد في روايات موروا أو في بحثه الادبي ، او فيما دون من تاريخ شعوب – امريكا وفرنسا وبريطانيا او تاريخ حياة العظماء – دزرائيلي ، بيرون ، شيللي ، فولتير ، شاتو بريان ، ادوار الثامن – أو أية دراسات ادبية واجتماعية ، اي توجيه فلسفي ، او اي ايحاء بقبول مذهب ، ونبذ آخر ، فما يستشيط غضباً في صفحة ، ليميد طربا في صفحات ، وما تراه يأخذ بالقارىء صعداً نحو قمة ، ليرمي به بعد قليل في الهوة التي تلي القمة من الطرف الآخر ، شأن كثير من كتاب فرنسا المعاصرين ، بل ما حاول قط اقتناص عشاق المذاهب والفلسفات بين قرائه الذين عــاهدهم ألا يشل حريتهم ، ويدنس تفكيرهم ، ويقودهم الى زرائب النظريات ومعسكرات التجنيد . وانه لمتحقق لديك بلا ريب ، وأنت تطالعه ، أنك تاتي الكاتب في سهل ممرع خصيب ، تتموج الوانه ، وتنبسط آفاقه ، وترى في انشائه السهل الرفيق ، المتحرر كتفكيره من مدارس الانشاء وصناعة الاساليب ،صفاء يشف بكلماته عن المعاني ، ويترقرق باعذب العواطف، فما نحن بالحق – كما قلنا – مع موروا في بطون التاريخ ، او في اعماق دراسات الحياة والرجال ، الا في نزهة ماتعة ، ضمن اطار هذا السهل الرحيب الكريم .

اني أشيد بهذه الناحية النبيلة من أدب (موروا) لان دارسي الثقافة الفرنسية ، يعانون انواع المضض والمقت من عنف تيارات الفكر في فرنسا ، منذ عهد دريفوس في القرن الماضي ، حتى ملاحم اليمين واليسار في الفترة التي سبقت الحرب الاخيرة ، وهم يشكون صداعاً دائماً من تبلبــل آراء النقدة والكتاب ، وانغماس الادباء في مشادات المذاهب والاديان والفلسفات ، ومطاردة القراء لحملهم الى هذا الصعيد أو الى ذاك ،باساليب لا تترفع غالباً عن الكذب ،والتزوير ، والسباب الرخيص، واذا ما طغت موجة الشارع الملوثة لتجرف كبار المفكرين ، وتزجهم في حمأ المشادة ، لن ترى في فلك النجاة يومئذ سوى بعض من عصمتهم كرامة المفكرين الاحرار ، وبينهم ، بل في طليعتهم، اندره موروا .

نشأ موروا نشأة محافظة ، متدنية ، بعيداً عن العــاصمة الفرنسية في (روان) وكان يقرأ (هوميروس) والاقدمين عندما كان الشباب في جيله يتهافتون على فرلين ، ورامبو ، وبوا كير ادب (جيد) . وعندما باشر طبع أولى مؤلفاته ، بعد عام ١٩١٤ ، كان فاليري ، وموورياك ، وجيد ، ومارتان دوغار ، يسبحون في فلك الشهرة ، وكان موروا المحافظ يقترب من تيــارات

الزمن الحديث بكل حذر ويقظة ، ولكنه لم يكتم أعجابه الشديد بابطال الفكر المجددين في فجر القرن العشرين . ولقد تتلمذ موروا بكل صبر على أيدي كبار من سبقوه في تاريخ الفكر ، قديمهم وحديثهم ، وعرف أوربة وبريطانيا وامريكا معرفة علم ويقين ، ويعد اليوم من خيرة مثقفي كتاب العصر .

أحب موروا مصطلحات الحياة الاجتماعية ، وظهرت طبيعته المحافظة في تقديس العائلة ، على أنها حجر الزاوية في بناء المجتمع . وفي احدى دراساته الادبية البليغة عن (بول فاليري) اعرب عن رأيه في احترام هذه المصطلحات والتقاليد ما دامت تؤدي واجبها في تنظيم الحياة بين أفراد يؤلفون المجموعة العامة المتعاونة الحرة .

يقول فاليري ، ويؤيده موروا في قوله،ان كل جمعية بشرية قامت على لغة ، وهي اولى المصطلحات الانسانية وأهمها ، وعلى عادات ، وانظمة مرعية غير مكتوبة ،اصبحت قوانين مفروضة . وان حركة جمعية ما نحو المدنية ، انما هي حركة نحو الرموز والشارات . والغرائز الاولى الحيوانية لا يمكن التغلب عليها الا بالافكار ، وبالصور ، وبالقواعد الوهمية . ان هذه المصطلحات البشرية هي روح النظام في جمعية تيسرت لها عناصر التكوين ، وليس من حرية معقولة ، الا تحت ظل النظام . لذلك – يقول فاليري – لا حرية مع الوحشية . وكثيراً ما تسود الفوضى الوحشية حياة شعب ، فلا يرغب معها بسوى احد مخرجين : اما حكم القوة أو الموت .

وليس من الضروري ان تقوم المصطلحات البشرية على اسس حقيقية ثابتة . وانه لمن المؤكد ان الزمن ، يوماً ما ، سيأتي عليها ويبدلها . على ان فضيلتها في انها تقوم الحياة في فترة ما ، اذا انقضت ، وجب التفتيش عن سواها .

بهذا يعرب (موروا) عن رأي فاليري في لزوم اصطناع القواعد والمصطلحات ، ما دامت كائنات حية ، تؤلف مدنية شعب ، ينشد الحرية العادلة ، في ظل النظام المعقول . فاذا ما غلبها الزمن ، وانقلبت الى ذكريات وجمادات وجب ابدالها بغيرها . وفي هذا بيان واضح عن (محافظة) موروا التي تحترم تقاليد الجمعية النافعة ، فلا هو يكفر بها ويتحداها مثلما فعل (جيد) ، ولا هو يبس على تقاليد شوهاء ، يظل يوليها احترامه مهما بليت كما كان يرى بول بورجيه .

ان (العائلة) – في عقيدة موروا وايمانه لاقدس –ما اصطحت عليه الجمعيات قديمها وحديثها، في سبيل دعم كيانها وحفظ بقائها .

. . .

بين يدي القارىء الآن ، نموذج صادق عن روح موروا وانشائه في رواية (اجواء) التي نقلها الى العربية ، بقوة ونجاح ، الاستاذ سعيد الغضباني ، وسيطالع القارىء في (اجواء) تاريخ حب وزواج ، وعائلة ، وكارثة ، في اطار اجتماعي ، من خلق تطورات الزمن الحديث ، قوامه عائلتان : احداهما محافظة ينشأ فيها الفتى ، والثانية متحررة تنشأ فيها الفتاة . فاذا ما التقى الفتى بفتاته ، فتحابا وتزوجا يدخل الكاتب في صلب المعضلة العائلية الجديدة ، متنقلا بك في أجواء متباينة، وانواء عاصفة من حب وغيرة ، وكبرياء ، ومغامرة .

يقيناً ان الناحية الاجتماعية في (اجواء) ليست الواجهة الظاهرة والهدف الواضح ، ولو كان الامر كذلك ، لوجب ان يقتصر الكاتب على دور الواعظ الثرثار . لكن موروا استطاع بقوة فنية خارقة ان يكشح الوضع الاجتماعي بعيداً عن المشهد الخارجي العام للقصة ، وأخذ بالقارىء في مجاهل نفسين معذبتين ، ليطلعه على روائع سر النفس الانسانية ، يؤججها الالم ، وتعصف بها الأهواء ، فتدفع باسرة سعيدة الى وادي الحسرات والدموع .

هنا اترك القارىء لقصته ، ينزه مع مؤلفها ومعربها في سهلها المنبسط الآفاق ، ليكون لنفسه ما يشاء من آراء وانطباعات ، وحسبي أن أشيد بمجهود الاستاذ القضماني ، في تفهم روح الكاتب وبلوغه منه سر الفن الانشائي الفرنسي ، منقولا الى عربية سهلة سائغة ، فكان اداؤه صادقاً في معناه ومبناه ، وانني أعلم أن ما يسر مهمة الاستاذ القضماني في أدائه الامانة ، الفة روحية واشجة بينه وبين الكاتب ، وشعبه في الميول والطبائع ، والاتجاه الفكري الهادىء ، رغم تباين الزمان والمكان والامكانيات الثقافية .

فله شكر القارىء العربي وتقديره .

ايلول ١٩٤٩ — فؤاد الشايب

= ١ =

سيقع سفري المباغت من نفسك ، ولاشك ، موقع الدهشة والاستغراب فمعذرة منك وصفحاً ، على أنني لست على ذلك بنادم أو آسف . انني لا أدري اذا استطعتِ ، أنتِ أيضاً ، أن تستمعي الى تلك العاصفة الموسيقية التي تنبعث ألحانها من أعماق نفسي منذ أيام . آه ! كم أود أن استسلم الى ذلك الاضطراب العنيف الذي ألم بي أول من أمس ، ونحن في الغابة ، فالقى بي على ثوبك الابيض . ولكنني اخشى الحب يا ايزابل وأخشى نفسي أيضاً . اني لأجهل ما تحدثك بـه « رنه » وغيرها عن حياتي الماضية . نعم لقد أفضيت اليك مراراً بشيء من ذلك ، ولكنني لم أكاشفك الحقيقة . ان الرغبة في ارضاء من نتعرف اليهم ، والسعي وراء نيل اعجابهم ، ليدفعان المرء الى زخرفة ماضيه فيأخذ في الحذف والتبديل في ماض كان يود ان يكون ماضياً سعيداً رغيداً . والآن وقد تبادلنا الثقة فان صداقتنا اصبحت لا تتلمس أسباب التملق والمداجاة . ان الرجال لايكشفون عن دخائل نفوسهم ، الا على مراحل متعاقبة ، كما أن النساء لايمنحن أجسادهن الا على دفعات ، وبعد كثير من الوان الممانعة والدفاع ، وهكذا فاني ألقي الى المعركة بجنود اسراري ، واحداً اثر آخر ، ولسوف تخرج ذكرياتي الصادقة الى وضح النهار بعد ما ظلت طويلاً في ظلمه الكبت وضيق الاسار .

ها انني عنك بعيد ، وفي الغرفة التي شيعت فيها طفولتي ، وها هو الرف ينوء بالكتب المكدسة التي تحتفظ بها والدتي منذ أكثر من عشرين عاماً لتقدمها « الى البكر من اولادي » كما كانت تقول . فهل أعقب ولداً يا ترى ؟ وهـذا الغلاف الاحمر العريض الملطخ بالحبر هو معجمي اليوناني ، وهذه المجلدات المذهبة هي جوائزي المدرسية . اني أريد أن افضي اليك بكل شيء يا ايزابل ، من

الطفل الناعم الوديع ، الى الشاب الماجن المستهتر ، الى الرجل البائس الجريح .
نعم أريد أن أفضي اليك بكل شيء وبكثير من البراءة والتواضع والصدق .
ومن يدري ؟ فلعلني حين أنفض يدي من كتابة هذه القصة لا أملك الشجاعة لأدفعها اليك . فلا بأس أيضاً ، فليس من العبث واضاعة الوقت أن يعمل المرء ملخصاً لحياته في غابر السنين .

انك لتذكرين أنني وصفت لك « كانديما » ونحن عائدان من سان جرمان في احدى الأمسيات العذاب . انها بلد يجمع بين الكآبة والجمال . وهناك سيل دافق يخترق معاملنا المشيدة في أسفل واد منعزل . أما دارنا فقصر صغير من قصور القرن السادس عشر يشرف على أرض بور تكسوها الاعشاب . لقد كنت صغيراً جداً عندما داخل نفسي شعور الكبرياء لأنني من عائلة « مارسنا » التي تتحكم في تلك الربوع . كان لجدي مصنع للورق أشبه بمخبر له ، فاستطاع والدي أن يجعل منه معملاً كبيراً ، ثم اشترى الأرض المهملة وجعل من كانديما المتواضعة بلداً نموذجياً ، وكنت أرى ، طوال عهد الطفولة ، الابنية تشاد وتتلاحق ومستودع عجينة الورق يمتد على امتداد مجرى السيل .

وكانت أسرة امي من ليموزان ، فقد اشترى جدي وكان كاتباً عدلا قصر كانديما كملك من أملاك الدولة . ولم يأت والدي — وكان مهندساً من اللورين — الى تلك الربوع الا بعد زواجه ، وقد جاء بأحد أخوته ، عمي بيير ، الذي كان يقيم في قريه مجاورة تدعى « شاردوي » ، وكانت تجتمع العائلتان عند غدران « سانت ايريه ، في أيام الآحاد المشرقة الجميلة ، فكنا نركب العربة فأجلس قبالة والدي على مقعد خشن ضيق ، وكثيراً ما كنت أغفو على وقع الحوافر الموزون ، وكنت أتلهى بالنظر الى ظل الحصان يرتسم على جدران القرية وعلى منحدران الطرق لكي أدفع عن نفسي دواعي السآمة والضجر ، ولأمتع نظري برؤيه ذلك الحصان ينثني حيناً ويمتد حيناً آخر ، ويسبقنا تارة ويتخلف عنا اخرى ، وكانت رائحة الروث تنتشر الفينة بعد الفينة وتغلفنا كقطعة من من السحاب ، فيلاحقنا الذباب الكبير ويأخذ في مضايقتنا . ان هذه الرائحة

ظلت مرتبطة في ذهني بذكرى يوم الاحد كما ارتبط بها رنين الاجراس. كنت أكره التصعيد في المرتفعات اذ تأخذ العربة في السير ببطء لايطاق في حين ان الحوذي الشيخ « توماسون » يرغي ويزبد ويضرب الهواء بصوته .

كنا نلتقي في الفندق بعمي بيير وامرأته وابنتها الوحيدة « رنه » فكانت والدتي تقدم لنا شطيرة الزبدة ويقول لنا والدي : هيا العبا . كنا نتنزه ، انا ورنه ، بين الاشجار وعلى ضفاف الغدران ونلتقط اثمار الصنوبر وحبات الكستنة وعند العودة ، كانت رنه تركب معنا وكان الصمت يخيم على والدي طوال الطريق .

ان رزانة والدي المتناهية لتجعل ادارة الحديث بمحضره أمراً شاقاً عسيراً ، فكانت تظهر عليه بوادر الالم والامتعاض عندما تتعرى عاطفة من العواطف على ملا من الناس . فاذا تحدثت والدتي ، ونحن على المائدة ، عن تربيتنا أو المعمل ، أو عن اعمامنا أو عن الخالة « كورا » المقيمة في باريز ، كان والدي يشير بحركة قلقة الى الخادم لكي يرفع الاطباق ، فلا يسع والدتي عندئذ الا ان تلزم الصمت .

وكنت صغيراً جداً عندما لاحظت ان والدي أو عمي ، اذا كان لهما ما يقولانه لبعضهما ، فانهما يكلفان امرأتيهما بالقيام بهذه المهمة بعد أخذ كل أسباب الحيطة والتحفظ . وكنت صغيراً أيضاً عندما أدركت أن والدي يخشى الصراحة ، فمن تعاليمنا ان كل مانبديه من المشاعر حقيقي لاغبار عليه ، وان الحب دوماً متبادل بين الآباء والابناء ، والازواج والزوجات ، فعائلة مارسنا تريد ان تنظر الى العالم كجنة مثالية فاضلة ، ويخيل الي ان مبعث ذلك طيبة في القلب وسلامة في الطوية أكثر من أن يكون حباً في الاخذ باسباب التظاهر والمداجاة .

= ٢ =

ان الشمس لتغمر سهل « كانديما » من جميع جوانبه ، وعلى انخفاض منه قليل تقوم قرية « شاردي » التي يلفها ضباب من الحرارة المضطربة ، هناك طفل صغير قد غرز حتى نصفه في حفرة قد احتفرها بجانب كومة من الرمل ، وأخذ يترقب ، من خلال الافق البعيد ، قدوم عدو غير منظور . لقد استوحيت هذه اللعبة من كتابي العزيز «حرب الحصون » ، كنت في حفرتي أقوم بدور الجندي (ميتور) أدافع عن حصن « ليوفيل » تحت امرة قائد طاعن في السن وكنت على استعداد لان أجود بنفسي من أجله راضياً مطمئناً .

اني لاستمحيك عذراً لسرد هذه المشاعر الصبيانية البريئة الساذجة ، فلقد وجدت فيها أول منفذ استطعت ان أعبر بواسطته عن رغبتي الملحة في التضحية العنيفة التي كانت احدى صفاتي البارزة ، ومنذ ذلك الوقت أدركت (اذ لا ازال اتبين بقية من شعاع ضئيل يتلمع بعد في ذاكرة الطفل الذي كنته) أدركت ان في حب التضحية شيئاً من حب اللذات الحسية .

وما أسرع ماتبدل طراز لعبي ، لقد قرأت في كتاب آخر منحته في رأس السنة ، وعنوانه « جنود روس صغار » ، قصة عصبة من الطلاب قد الفوا جيشاً ، وانتخبوا احدى الطالبات ملكة عليهم ، كانت الملكة تدعى « آنياسو كولوف » وهي فتانة ريا بارعة الجمال ، تجمع بين الرشاقة وحسن التصرف والدلال . كم كنت أحب تلك العهود التي قطعها الجنود للملكة ، وتلك الاعمال الباهرة التي قاموا بها تقربا اليها وارضالها ، وتلك الابتسامة العذبة التي كانت لهم جزاء وعزاء . انني لا أدري لماذا كانت تقع هذه القصة من نفسي ذلك الموقع المحبب الجميل ؟ ومن خطوط هذه القصة ارتسمت في مخيلتي صورة تلك الفتاة التي طالما وصفتها لك . وكأني لا ازال اسير الآن بجانبها في سهول كانديما تحدثني بصوت

قوي النبرات حديثاً عذباً شجياً . انني لا أعلم متى بدأت اطلق عليهـــا اسم (الفارسة) ولكنني كنت اعلم ان مانلته من دواعي السرور كان متصلاً دوماً بفكرة الجرأة وحب المغامرة .

لقد ظلت ابنة عمي رفيقة الدراسة ردحاً من الزمن بالرغم من أنها تصغرني بسنتين ، وعندما بلغت الثالثة عشرة، أدخلني والدي ثانوية « كاي - ليساك » في ليموج ، فاقمت عند أحد ابناء عمي ، وكنت لا أعود الى منزلنا الا يوم الاحد . كم كنت أحب حياة المدرسة ،فقد أخذت عن والدي حب الدرس والمطالعة ، وكنت تلميذاً مجداً دؤوباً . وكان حتما علي أن أرث من آل مارسنا الخجل والكبرياء، كما ورثت عنهم العين البراقة والحاجب العالي ، على أن صورة تلك الملكة التي ظلت مخلصاً لها كانت تخفف من حدة هذه الكبرياء ، وكنت استعيد في نفسي قبل أن يداعب النوم أجفاني قصصاً كانت « الفارسة » بطلتها . اما الآن فقد أصبح لبطلتي اسم جديد، هو (هيلين) لأنني احببت هيلين التي وصفها هوميروس ، واستاذي في الصف الثاني الثانوي هو المسؤول عن هـذا التحول في الحب .

لماذا تبقى بعض الصور واضحة في أذهاننا وضوحها زمن المشاهدة ، مع أن صوراً أخرى ، تبدو ذات أهمية كبرى ، لا تلبث ان تمحى ثم تزول بسرعة ؟ اني لاسترجع الآن في مخيلتي صورة الاستاذ «بابي» يدخل الى الصف بخطاً بطيئة ، معلقاً معطفه وهو يقول : « لقد ظفرت لكم بموضوع جميل هو قصيدة سته سيكور ... » ، نعم ، اني لأرى بوضوح السيد بابي بشاربين كثيفين وشعر كشعر الفرشاة ، ووجه تغلفه غلالة من التعاسة والالم ، لقد أخرج من محفظته ورقة وأملى علينا : « ان الشاعر سته سيكور بعد أن تهجم على هيلين في اشعاره لما سببته لليونانيين من المصائب ، رمته فينوس بآفة العمى فادرك عندها الخطأ الذي ارتكبه ونظم قصيدته التي ضمنها كل ما شعر به من الندامة والحسرة لتهجمه على الجمال » .

آه ! كم أحب أن أعيد تلاوة صفحاتي الثاني التي كتبتها في ذلك الصباح .

اني أصبحت لا أشعر ، مرة أخرى ، بذلك الاتصال الوثيق بين الشعور العميق والكلام المسطور ، نعم صبحت لاأشعر بذلك أبداً ، خلا بعض رسائل اودبل ورسالة أكتبها اليك منذ ثمانية أيام ولم أدفعها اليك بعد ، ان فكرة التضحية على مذبح الجمال قد أثارت في نفسي ذكريات بعيدة دفينة ، وبالرغم من أني طويت عهد الشباب الباكر ، فاني لأشعر بالرعشة تهزني وأجدني منصرفاً الى العمل بنشاط أليم ، كأنني شعرت ، بان من حقي أنا أيضاً ، كتابة قصيدة سته سيكور ، وانا آخذ في تسجيل حياتي هذه الفانية العسيرة .

ولكنني أعطيك فكرة خاطئة جداً عما كانت عليه نفس طالب في الخامسة عشرة من عمره ، اذا قلت ان حماستي وعواطفي ظلت دفينة مكبوتة . لقد كنت اتحدث الى الرفاق ، عن الحب والمرأة ، أحاديث تهتك ومجون . وكان أصدقائي يروون تجاربهم مع النساء بتفصيل دقيق فظ . اما انا فأن هيلين تمثلت لي في امرأة غضة ريا من « ليموج » ، وهي صديقة لابناء عموم لي كنت اقيم عندهم ، واسمها « دونيزا ويري » . لقد كانت رائعة التقاسيم ، بارعة الجمال ، تظهر انها قريبة المأخذ سهلة المنال . وكنت افكر في « دون كيشوت » ، كلما دارت الاحاديث حول عشاقها الكثيرين ، وأتمنى لو اضرب هؤلاء المحدثين الافاكين بأسنة الحراب . لقد كانت تأخذني نوبة من جنون السعادة والخوف كلما أتت السيدة أوبري لتناول الطعام . وكان كل ما اقوله لها يبدو لي لوناً من الوان الهذر والسخف . كنت أكره زوجها ، وكان صانع بورسلين ، مع انه كان رجلا لطيفاً وديعاً . وكنت أرجو لقاءها دوماً في الطريق عندما اعود من المدرسة . لقد لاحظت أنها تذهب غالباً وقت الظهيرة لتشتري ازهاراً أو حلوى من شارع « بورت تورني » ، فكنت أحاول جهدي لاكون في تلك الساعة أذرع الرصيف جيئة وذهوباً ، بين بائع الازهار وبائع الحلوى . وكانت تسمح لي ، مرات عدة ، لان أرافقها حتى منزلها وأنا متأبط محفظتي .

أما في الصيف ، فالامر سهل يسير ، كنت التقي بها في ملعب التنس اكثر الاحيان . وقد اتفق ، في احدى الامسيات العذاب ، عدد من الازواج الشباب

على تناول طعام المساء في ذلك الملعب ، فطلبت مني السيدة اوبري ، وهي تعلم حبي لها ، أن ابقى أيضاً ، كان الطعام كله بهجة وسروراً . وعندما أرخى الليل سدوله ، تمددت على الاعشاب عند اقدام دونيز ، فمست يدي قدمها وأخذتها برفق فلم تبد اعتراضاً . كانت رائحة الازهار تنتشر حولنا وكأني الآن استنشق عبيرها القوي الفواح . كنت اتطلع الى النجوم تتراقص من خلال الاغصان ، لقد كانت لحظة غفل عنها الزمان فتذوقت بها افاويق السعادة والهناء .

وعندما ادلهم الليل وتكاثف الظلام ، ابصرت شابا يتقدم منها على مهل ، وقد استطعت معرفته رغم الظلمة المتكاثفة ، هو شاب في السابعة والعشرين من عمره ، نال شهرة واسعة في المحاماة لحدة ذكائه ، وقوة عارضته ، وسمعت بالرغم مني ايضاً ، محادثة دارت بينهما بصوت خافت ، لقد طلب ان توافيه في باريس الى مكان عينه لها ، فدمدمت « اسكت » ولكني تيقنت انها ستوافيه حتماً ، اني لم ادع قدمها التي تركتها لي وهي سعيدة غير مبالية . على انني شعرت بألم الجراح ، وطغى على نفسي فجأة احتقار غريب للنساء .

لقد كنت اغازل الفتيات طوال هذا الصيف ، وقد علمت ان في استطاعة المرء ان يضمهن اليه في الممرات المظلمة ، وان يقبلهن ويعبث باجسادهن ، فكأن حادث دونيز اوبري قد شفاني من الاستسلام للوهم والخيال . ولقد أخذت نفسي بلون جديد من ألوان الحب ونجحت بذلك نجاحاً ملأ نفسي تيهاً ويأساً .

= ٣ =

لقد أصبح والدي في السنة التالية عضواً في مجلس الشيوخ يمثل مقاطعة « فينا العليا » بعد ان ظل زمناً طويلاً مستشاراً عاماً ، فأدى ذلك الى تبديل في طراز حياتنا . أتممت صف الفلسفة في احدى مدارس باريس واصبحت كانديا ملجأ نلتجىء اليه في فصل الصيف . وكان علي أن أهيىء اجازة الحقوق واقوم بالخدمة العسكرية قبل ان اختار مهنة من المهن .

وقد استطعت ، خلال الصيف ، ان أرى السيدة اوبري التي قدمت من كانديا بصحبة ابناء عم لي يقيمون في ليموج . لقد طلبت اليها أن أريها الحديقة العامة وكم شعرت بنشوة كبرى عندما ذهبت بها الى مكان منعزل في الحديقة كنت ادعوه « مرصدي » ، اذ كنت اقضي به ، في اول عهدي بحبها ، آحاداً بكاملها استسلم فيها للتأملات والاحلام .

لقد اعجبت بذلك الوادي السحيق المخضوضر الذي كانت تتراءى في اعماقه الاحجار المحاطة بالزبد ، وينتشر فوقه الدخان الخفيف المتصاعد من المعامل . وعندما هممت بالقيام وانحنت قليلاً لتشاهد حركة العمال التي كانت تضطرب عن بعد ، وضعت يدي على كتفها فقابلتني بابتسامة خفيفة ، ثم حاولت ضمها لانتزع قبلة من شفتيها النديتين فابعدتني عنها بلطف ورفق ، قلت لها : ساعود الى باريس في تشرين الاول وأترقب قدومك الى منزلي الصغير الذي يقع على ضفة السين اليسرى .

عثرت في دفتر مذكراتي لشتاء ١٩٠٦ - ١٩٠٧ على مواعيد كثيرة ، وكنت اعتقد ان دونيز اوبري تغرر بي وتخلف مواعيدها ، ولكنني كنت على ضلال في هذا الاعتقاد . فدونيز هي مثال المرأة الكاملة ، قريبة لكل قلب محبة لكل نفس ، وكنت ارغب أن أجد فيها الرفيقة والخليلة في وقت

واحد . وكانت تأتي الى باريس فتراني وتشتري اثواباً وقبعات وكنت، أشعر بكثير من النفور والاشمئزاز لانني كنت أحيا حينئذ في بطون الكتب وانشد الانسجام والكمال في كل شيء . لقد طلبت الي أن أعيرها كتباً لجيد وبارر وكاوديل ، ولكنها كانت تجرح شعوري بما كانت تبديه من الاراء حول هذه الكتب . كان جسمها غضاً جميلاً وكنت اشتهيه بقوة حين تعود الى ليموج . وكنت عندما اقضي ساعتين بقربها أنعم بتلك اللذاذات العذاب ، كنت اتمنى لو يدركني الموت واتلاشى من الوجود ، او آخذ نفسي في نقاش طويل مع رجل صديق .

اما صديقاي المحبيان فيها اندره هالف،وهو شاب يهودي حاد الذكاء نفور الطبع، تعرفت اليه في كلية الحقوق ، ثم برتران جيساك ،وهو احدرفاق الصبي في ليموج،وكان طالباً في مدرسة سان سير ويقضي عطلة الاحد عندنا في باريس. وكنت اشعر ، عند ما التقى بهالف او برتران انني اعيش في جو مشبع بالصداقة البريئة والاخلاص النبيل . وكنت أراني قد ركبت من « فيليبات »متعددة. فكان يتراءى في الظاهر فيليب والدي، ذلك المخلوق البسيط المجبول على بعض مواضعات مارسنية ، وبعض مقاومات ضعيفة ، ثم يأتي وراءه فيليب آخر هو فيليب دونيز أوبري ،الشهواني ذو الحساسية الشديدة، ثم فيليب برتران العاطفي الشجاع ، ثم فيليب هالف القاسي الصريح ، ولكنني كنت على يقين ان هنالك « فيليباً » آخر يكمن وراء هؤلاء جميعاً ، هو اقرب الى الحقيقة منهم ، وهو وحده قادر على ان يردني سعيداً لو استطعت معه الوفاق والانسجام ، ولكني لم أحاول حتى معرفة هذا « الفيليب » .

هل حدثتك عن غرفتي التي استأجرتها في بيت منعزل يقوم في شارع فارن؟ لقد خلعت عليها ذوقي القاسي الغريب الذي كان يسيطر علي في تلك الآونه . فالجدران عارية جرداء الا من صورتين : أحداهما لبسكال والاخرى لبتهوفن ، فيالهما من شاهدين غريبين على ما كنت اقوم به من المغامرات ، وكان يستر مقعدي الطويل ، الذي كان يغنيني عن السرير في كثير من الاحيان ، نسيج

أزرق غليظ . وعلى سطح المدخنة قد بعثرت كتب لسبينوزا ومونتين، وكتب علمية أخرى . فهل كان الباعث على ذلك رغبتي في اثارة الدهشة والاعجاب، أم كان ميلاً صادقا الى روائع الافكار ؟ ان الامر لمزيج من العاطفتين ، فلقد كنت حقاً شاباً مجداً ، وكنت أيضا قاسياً غريب الاطوار .

وكانت دونيز تقول لي مراراً ان غرفتي تخيفها ، ومع ذلك تشعر نحوها بالحب . وكان لدونيز قبلي عشاق كثيرون ، كانت تظفر دوماً بالسيطرة عليهم حتى علقت بي . اني أذكر لك هذا الامر بكل صدق وتواضع ، فالحياة علمتنا جميعاً أن التواضع في الحب أمر هين يسير . كم من شخص عادي محروم من أية مزية أو موهبة قد اثار الاعجاب وواتاه النجاح ، وكم من شخص قد وهب كل وسائل الاغراء ، ومع ذلك ، فالاخفاق يلازمه على الدوام . فاذا قلت لك ان دونيز علقت بي اكثر مما علقت بها ، فانما اقول ذلك بكل صدق ، هذا الصدق الذي سألتزمه في سرد حوادث هي اكثر اهمية في مجرى حياتي . ففي هذه المرحلة من العمر ، بين العشرين والثانية والعشرين ، كنت معشوقا أكثر من أن أكون عاشقا . فلم يكن لدي ، في الواقع ، فكرة واضحة عما يسميه الناس بالحب ، وكانت فكرة الالم في الحب ، والعذاب من أجل الحب ، تتراءى لي شيئا خياليا لا يستطاع احتماله . مسكينة انت يا دونيز ! اني لأراها الآن وقد تمددت على المقعد الطويل ، تميل نحوي قليلا وعلى وجهها غلالة رقيقة من الكآبة والغم لتستقري هذه الجبهة المبهمة المغلقة فاقول لها :

– الحب ؟ وما هو هذا الحب ؟ فتجيب .

– الا تعلم ما هو الحب ؟ انك لسوف تعلم . . . فأنت ايضا ، سوف تقع في الفخ . .

لقد علمت أخيراً أنها نالت شهرة واسعة بين سكان ليموج في حدة الذكاء ، وأن جهودي قد أعانتها في السيطرة على رجل من أشد رجال تلك المنطقة مراسا . ان عقول النساء تتألف من الزسوبات المتعاقبة التي يحملها اليهن من أحبين من الرجال ، كما أن أذواق الرجال تحتفظ دوما بتلك الصور المختلطة

المكدسة للنساء اللواتي مررن في حياتهم . ان الآلام العنيفة التي تسببها لنا امرأة تكون ، على الاغلب ، سببا في حب امرأة اخرى وفي شفائها ايضا .

كان حرف (م) يرمز في دفتر مذكراتي الى ماري كراهام ، وهي فتاة انكليزية ذات عينين مليئتين بالاسرار ، تعرفت اليها عند خالتي « كورا » . ومن الواجب ان احدثك عن هذه الخالة لانها تقوم في البقية من تاريخ حياتي بدور متقطع ، ولكنه هام خطير . لقد تزوجت بالبارون شوان ، وهو صاحب مصرف كبير ، وكانت تستحوذ عليها رغبة ملحة ، لا أدري مبعثها ، لان تجتذب اليها اكبر عدد من الوزراء والسفراء والقواد ، فكانت تولم مساء كل ثلاثاء وليمة كبرى لاربعة وعشرين مدعواً ، وكانت هذه الولائم من المناسبات السارة النادرة في حياة الاسرة ، وأكد لي والدي أنها لم تقطع أبداً سلسلة هذه الولائم ، وروت لنا والدتي أنها عندما ذهبت الى باريس لما بلغها خطورة مرض البارون زوج اختها ، اتفق ان وصلت مساء الثلاثاء فوجدت اختها منهمكة في اعداد وليمتها التقليدية ، فسألتها والدتي :

— وادريان ؟ فاجابت خالتي :

— انه بحالة حسنة جداً ولكنه لا يستطيع تناول الطعام معنا على المائدة .

وفي صبيحة اليوم التالي هتف خادم الى أمي قائلا : « ان سيدتي البارونة تخبر بمزيد الاسف السيدة مارسنا بان سيدي البارون قد مات فجأة هذه الليلة » .

ما كنت لارغب كثيراً برؤية خالتي عند قدومي الى باريس ، لان والدي قد نشأني على رهبة المجتمع ، ولكنها راقت في عيني منذ أن اتصلت بيننا أسباب المعرفة ، فهي امرأة على حد كبير من طيبة النفس ، وحسن الطوية . يلذ لها كثيراً أن تقدم للناس ضروب المعروف وأجل الخدمات ، وقد أكسبها اتصالها الدائم باشخاص ، مختلفي المشارب والمنازع ، معرفة واسعة بملابسات ومواضعات الحياة الاجتماعية ، وقد تكون هذه المعرفة مضطربة مشوشة ، ولكنها حقيقية واقعية . وكانت بنظري ، أنا الشاب القروي المحب للاطلاع ، معيناً لا ينضب يروي ظمأي للمعرفة والاطلاع . ولقد أدركت أني استمع لها بلذة وشغف فتوطدت

لذلك بيننا أواصر الصداقة ، فكنت أدعى مساء كل ثلاثاء الى شارع مارسو ، وربما كان سبب امعانها في ايناسي والتلطف لي ،علمها أن والدي غير راضيين عن عن منتداها وحفلاتها ،فكانت تجد في اقتناصها لي ظفراً غير مباشر عليهما .

وكان يتردد بالطبع الى منتدى الخالة كورا عدد من الفتيـات الجميلات كمشهيات لا بد منها ، لقد حاولت اغراء كثير منهن ،فكنت أتودد اليهن واتملقهن دون أن أحمل لهن شيئا من الحب ، وكأنما كنت أريد أن أقنع نفسي ان الظفر في هذا الميدان سهل مستطاع . اني لاتمثل الآن ذلك الهدوء الذي كنت آخذ فيه نفسي ،وأنا متمدد على الاريكة ،عندما كانت تترك أحداهن غرفتي وهي تبسم لي برفق وحنان ،فاتناول كتابا واطرد خيالها من ذهني بسهولة ويسر.

لاتحكمي علي بقسوة ، فكثير من الشبان ، مثلي ، اذا لم يسعفهم الحظ بالعثور على خليلة أو امرأة ممتازة فانهم يصلون ، بحكم الضرورة ، الى هـذه الاثرة المدلة بنفسها ،الفخور بذاتها . فهم جادون بالبحث عن نمط من الحياة يرتاحون اليـه ، والنساء يـدركن بالغريزة ان هـذه المحاولات عبث لا طائل تحته ، ولكنهن يندفعن نحوها طائعات مختارات ، وقد تفضي الرغبة احيانا الى الخداع والتغرير ، ولكن سرعـان مـا ينبعث ضجر خفي بين روحين لا يجمع بينهما الحب .

كنت ألمح عن بعد في الحفلات الموسيقية التي كنت اتردد اليها ايام الآحاد وجها ساحراً جميلا يذكرني بملكة طفولتي ، تلـك الملكة السلافيـة الشقراء ، ويذكرني أيضاً باشجـار الكستنة في كانديا، كنت طوال العزف ارفع ،الى ذلك الوجه المجهول كل ماتثيره الموسيقا في نفسي من العواطف والاحاسيس . وكان يخيل لي في بعض الفترات انني اذا استطعت التعرف على تلك المرأة فاني واجد فيها ،آخر الامر ، الشخص المثـالي المنشود الذي احيا من اجله ، ولكن ما ان تضيع هذه الملكة بين جموع الجماهير،حتى ايمم وجهي شطر شارع « فارن » لالقى امرأة لا أكن لها في نفسي شيئا من الحب .

انه لمن الصعب علي الان ان أعلل كيف استطعت الجمع في نفسي بين شخصين

جد متناقضين ،يسيران في نهجين مختلفين ، ولا يلتقيان ابداً ، بين المحب العاطفي التواق للتضحية الذي ، عندما عز عليه العثور على المرأة المحبوبة المثالية ، لجأ الى عالم الكتب ينشد هناك مثله الاعلى في حب مدام مورتسوف ومدام رەنال، وبين الشاب الماجن المستهتر الذي يختلف الى ولائم الحالة كورا ، ويأخذ في حديث جريء مع المرأة التي تجلس بقربه ، هذا اذا وقعت من نفسه موقع الرضى والقبول .

لقد عرض علي والدي ، بعد أن قمت بالخدمة العسكرية ، مساعدته في ادارة المعمل ، فقد نقل مكاتبه الى باريس حيث زبنه من كبار الصحفيين والناشرين. وقد استأثرت هذه الاعمال باهتمامي واثارت انتباهي وصرت أبذل الجهد لتحسين العمل وازدهاره ، دون ان انقطع عن متابعة المطالعة والدرس. كنت اتردد الى كانديما مرة في الشهر خلال أشهر الشتاء ، أما في الصيف فكنت أقضي بضعة اسابيع بالقرب من اسرتي المصطافة هناك ، وكنت مغتبطا أشد الاغتباط باستعادة ذكرى النزهات الخلوية التي كنت اقوم بها في عهد الطفولة في ربوع ليموسان ، وكنت سعيداً كل السعادة ايضاً في البعد عن الفتيات اللواتي كن يضربن حولي في باريس شباكا دقيقة محكمة من المواعيد والثرثرة والشكاوى.

فماري كراهام ،وقد حدثتك عنها ، كانت امرأة رجل اعرفه معرفة وثيقة، فكان يسوءني جداً أن أهز يد ذلك الرجل الزوج ، ولكن أصدقائي كانوا على النقيض من ذلك ،فكانوا يقومون بذلك بعجب ساخر وكبرياء متهكمة . ان تقاليد أسرتي صارمة في مثل هذه الاحوال ، فقد تزوج والدي زواج مصلحة وعقل ،فانقلب ، كما يحدث كثيراً ، الى زواج عاطفة وحب . وكان سعيداً في انتهاج طريقته الخاصة في الحياة التي كان يلازمها الكثير من الجفوة والانطواء، فلم يعرف عنه أن قام ، منذ زواجه على الاقل، باية مغامرة غرامية، مع انني تبينت فيه رقة العاطفة ورهف الحس ، وشعرت شعوراً مبهما أنني أستطيع أن أكون مثله سعيداً مخلصا اذا أسعفني الحظ بالعثور على إمرأة تشبه ولو قليلا (الفارسة) تلك المرأة المنشودة .

= ٤ =

لقد اصبت في شتاء ١٩٠٩ بالنزلة الصدرية مرتين متعاقبتين ، وفي شهر آذار اشار طبيب العائلة ان اذهب الى الجنوب لقضاء بضعة اسابيع، ولكن فضلت زيارة ايطاليا التي لا اعرفها ليتسنى لي رؤية بحيرات الشمال وجمال البندقية ، ولاقضي الاسبوع الاخير في فلورنسا . وفي اول مساء لمحت في الفندق فتاة ذات جمال علوي ملائكي ، تجلس الى المنضدة المجاورة ، فلم استطع أن أحول بصري عنها ، كان يجلس معها أم لم تتخط بعد مرحلة الشباب ، ورجل مسن . وعندما فرغت من العشاء ، سألت مدير الفندق عن المرأتين فقال انهما فرنسيتان : السيدة والآنسة (ماله) ،اما مرافقهما فجنرال ايطالي وهو لا يقيم في الفندق . وفي اليوم الثاني ظلت المنضدة خالية .

كنت احمل كتب توصية الى كثير من الفلورنسيين ، منها كتاب للاستاذ انجلو كاردي الناقد الفني (الذي كان ناشره أحد زبني) وقد دعاني لتناول الشاي في اليوم الذي اوصلت اليه الكتاب . لقد اجتمعت في الحديقة الى عشرين مدعواً وكانت جارتاي في الفندق من بينهم ،وتراءت لي الفتاة بقبعتها الكبيرة من القش وثوبها الفضفاض ذي القلادة البحرية الزرقاء ، تراءت لي أشد روعة واكثر جمالا منها بالامس ، فشعرت فجأة بالهيبة والخجل ، وابتعدت عن حلقتها لاتحدث الى كاردي ، وكان الورد يغطي قسما كبيراً من الحديقة عند اقدامنا . . .

قال كاردي :

- - اني أعتني بحديقتي بنفسي ، فكل هذه الارض كانت منذ عشر سنوات مرجاً واسعاً . . . ولما تابعت اشارة يده التقت عيني بعيني الآنسة ماله ، ولاحظت بكل دهشة وغبطة أنها تحدق بي . انها نظرة سريعة خاطفة ..ولكنها البذرة التي تحمل في ذاتها كل عناصر الحصب التي انبثق عنها ذلك الحب العظيم .

وقد أدركت ،بالحدس ايضاً ،انها تسمح لي أن أكون على سجيتي معها، فلا كلفة ولا تصنع ، فاغتنمت اول فرصة واقتربت منها قائلا :

- يالها من حديقة جميلة ساحرة !

- الحق ما تقول . ان ما يثير في نفسي عوامل الاعجاب والحب في فلورنسا، هو ان في استطاعة الانسان مشاهدة الجبال الشاهقة ، والاشجار الباسقة في كل مكان ، فأنا انفر من المدن التي هي مدن فحسب .

- ان المنظر خلف الدار رائع فتان كما اخبرني (كاردي) . فأجابت بسرور:

- هيا بنا اذن لنمتع به الابصار .

لقد اخذت الآنسة (ماله) وجهها بين راحتيها ، وشرعت تتأمل ، بصمت وامعان ، تلك القبب الوردية ، والسطوح المنحدرة ، والجبال الزرقاء ، ثم صاحت بنشوة وذهول :

- آه ! كم ذا يعجبني ، ويستأثر بحبي !

وبحركة كلها ظرف ورشاقة وفتوة ، اخذت رأسها قليلا الى الوراء ، كأنما تود التهام ذلك المنظر البهيج .

لقد بدأت اوديل ماله تعاملني منذ الحديث الاول، بكل ثقة واطمئنان ، لقد اعلمتني ان والدها مهندس ، وهي به معجبة ، وقد خلفته بباريس ، فهي تشعر بألم وامتعاض من وجود هذا الجنرال بالقرب من والدتها . وما هي الا دقائق عشر ، حتى اخذنا في تبادل اعمق الاسرار. لقد حدثتها عن (فارستي) وقلت انني لا اجد طعماً سائغاً للحياة اذا خلت من العواطف العنيفة، والشعور العميق، (ان وجودها أنساني ، في لحظة واحدة ، وبدئي في المجون والاستهتار .) ولقد روت لي قصة راقت لي واعجبتني ، وهي ان صديقتها المفضلة (ميزا) قالت لها ، وكانت اوديل في الثالثة عشرة من عمرها : « اذا طلبت منك ان تلقي بنفسك من هذه الشرفة فهل تفعلين ؟ » فهمت اوديل ان تقفز من الطابق الرابع .

قلت لها :

- هل تذهبين كثيراً الى الكناس والمتاحف ؟ اجابت :

- نعم . ولكن الذي أفضله هو الشرود في الازقة القديمة ... على انني اخشى النزهة مع والدتي وصديقها الجنرال . فأنا أنهض منذ الصباح الباكر .. فهل لك ان ترافقني في الغد ؟ سانتظرك الساعة التاسعة في بهو الفندق .

- حسناً ... ولكن هل يجب أن استأذن من والدتك بالسماح لك بالخروج معي ؟

- كلا ، دعني اقم بهذه المهمة بنفسي .

وفي الغد انتظرتها في اسفل الدرج ،وذهبنا معاً .لقد كانت بلاطات الساحل العريضة تلمع تحت أشعة الشمس ، ويسمع عن بعد رنين بعض الاجراس ، والعربات تسبقنا وهي تسير بخفة وايقاع . وغدت الحياة فجأة غاية في البساطة ، واصبحت السعادة في نظري ان اكون دوماً بالقرب من هذا الرأس الأشقر ، وان آخذ ، عندما اجتاز شارعاً ، هذه اليد الرفيقة ، وان اشعر ، ولو لحظة ، بحرارة جسم غض فتي . لقد قادتني الى (تورنا بيوني) فهي تحب حوانيت الاحذية والكتب والازهار .

لقد تبينت فيها بعض الاهواء والميول ، التي كنت أنكرها عند المسكينة (دونيز اوبرى) .

اني لا أذكر على التحقيق مادار بيننا من الوان الحديث ، ولكني وجدت في دفتري هذه العبارات : « نزهة مع (أ) في (سان لورانسو .) لقد وصفت لي ذلك الضياء الذي كان ينتشر ، وهي في الدير ، فوق سريرها وقد تسرب من خلال نافذة أضيئت من الخارج بمصباح ، فكانت ترى هذا الضوء ، وهي راقدة ، يزداد انتشاراً ، وتحلم أنها في جنة الفردوس . لقد حدثتني ، عن (المكتبة الوردية) وقالت انها لاتعجب (بكامبل ومادلين) لانها لاتستطيع ان تشاهد على مسرح الحياة ، دور الطفل العاقل الرزين .أما قراءتها المفضلة ، فقصص الجن والشعراء . وقد ترى ، فيما يرى النائم ، أنها تتنزه في قاع البحر ، ومن حولها تسبح هياكل الاسماك ، او ان ابن عرس يدفع بها في أعماق الارض ، فهي

ولوع بالمغامرة ، وركابة اخطار ، تمتطي الجياد ، وتقفز فوق الحواجز الصعبة ... ، في طرفها ايماءة حلوة ، فهي عندما تحاول فهم امر من الامور ، تقطب جبينها قليلاً وتنظر الى الامام ، كمن لايحسن الرؤية ، ثم تقول لنفسها بهمس بطيء : « نعم ، نعم » . انها ادركت الامر .»

اني لعاجز كل العجز عن وصف ما اثارت هذه الفقرات في نفسي ، وانا انسخها لك ، من عوامل السعادة والهناء . فلماذا أشعر بهذا الفيض من الكمال المطلق ؟ أكل ماقالته (اوديل) جدير بالاهتمام ؟ انا لا أعتقد ذلك . على ان لها موهبة ، هي كل ماتفتقر اليه اسرة مارسنا ، موهبة تذوق الحياة . ان مايجذبنا نحو محبة الآخرين ، هو مايخفون في انفسهم من العناصر السحرية التي لاتوجد في طبعنا ومزاجنا ، اذ يستطاع عندئذ تأليف مركب كيمائي ثابت . نعم انني لم أتعرف على نساء ، أشد سحراً وجمالا من اوديل ، ولكني عرفت نساء أقوى شخصية وأشد ذكاء ، على ان واحدة منهن لم تستطع ان تضع في متناول يدي ذلك العالم الموار بالعواطف والاحاسيس ، لقد جعلتني التأملات المنفردة ، والمطالعة المستمرة ، في معزل عن عالم الاشجار والازهار ، عن عبير الارض الطيبة ، وجمال السماء الصافية ، ورقة الهواء المنعشة ، فجميع هذه المتع البريئة ، أصبحت دانية القطوف تجمعها اوديل كل صباح ، وتضعها تحت قدمي حزماً حزماً .

لقد كنت اطوي الايام ، عندما ارى نفسي وحيداً ، بين جدران المتاحف ، أو في غرفتي ، أقرأ كتباً عن البندقية أو عن روما ، لقد قيل ان العالم الخارجي لايصل الى نفسي الا عن طريق روائع المؤلفات ، ولكن (اوديل) فجأة ، وعلى غير ميعاد ، جذبتني وقادتني الى عالم الألوان والالحان .

هل كنت أبعث الضجر والسآمة في نفسها عندما كنت أشرح لها المعارك التاريخية ، او حياة دانتي أو حالة ايطاليا الاقتصادية ؟ كلا .

من قال انه يكفي غالباً ان تنطق شفتا امرأة بجملة ساذجة بلهاء لكي تبعث في نفس الرجل رغبة ملحة لتقبيل ذلك الفم الساذج البريء ، في حين

ان المرأة ، على العكس من ذلك ، انها تحب الرجل اكثر مايحبه ، وهو في اشد حالات القسوة والتفكير المنطقي ؟ . وهـــذا ينطبق علي وعلى اوديل الى حد بعيد . كانت ، عندما تمر امام حانوت للجواهر الزائفة ، تهمس باستعطاف (لنقف) ،فأنزل عند رغبتها غير متأسف ولا متأفف ، بل اردد في في نفسي : (كم احبها) وكنت استمع الى صوت خفي يأخـذ في القوة والارتفاع حتى يغمر كياني ، صوت (الفارس) الحامي ، وصوت التضحية حتى الموت ، تلك التضحية التي رافقت في ذهني فكرة الحب الصادق منذ عهد الطفولة . وكما ان المزمار في الجوقـة الموسيقية يستدعي ، بمقطع صغير ، الآلات الاخرى للعزف ، حتى يغمر الصـالة رويداً رويداً لحن مبهم قوي ، كذلك فان الزهرة المقطوفة ، والكنائس البيضاء ، وبوتيسيلي ، وميشيل انج ، تجمع بعضها الى بعض ليؤلف الجوقة الهائلة التي تأخذ في انشاد لحن السعادة التي تنبثق عن حب (اوديل) ، وعن حماية جمالها الرائع الناعم من عدو مستتر ، او خطر كامن .

لقد كنت أرى ، في المساء الأول الذي وصلت فيه ، أن نزهة ساعتين مع تلك المرأة المجهولة شيء خطير ، وحلم جميل بعيد المنال ، ولكن بعد مضي ايام ، اصبحت ارى الرجوع الى الفندق لتناول الطعام عبودية لا تحتمل ، ورقاً لايستطاع . اما السيدة (ماله) فقد داخلها القلق والاضطراب ،فهي على معرفة بي قليلة ، واخذت تحاول عرقلة سير صداقتنا ، ولكنك تدركين حق الادراك تلك المظاهر الأولى ، التي يبعثها الحب في نفس شخصين هما في مبعة الصبا ، وريق الشباب ، وتعلمين ايضاً ما يثير فيهما من القوة التي لاتنفع معها اية ممانعة او مقاومة . حقاً لقد كنا نشعر بجو ناعم من العطف الحنون والالتفات الجميل ونحن سادران لا نلوي على شيء ، فجمال (اوديل) الرائع كان في اعتقادي كافياً لاثارة ذلك العطف النبيل ، على أنها كانت تقول ان وجودنا معاً ،الواحد بالقرب من الآخر ، هو اشد فعلاً في اثارة دوافع الحب والاعجاب في نفس ذلك الشعب الايطالي الوديع ، فحراس المتاحف كانوا يستقبلوننا بابتسامة

حلوة ، وكان البحارة يرفعون رؤوسهم ويحدقون بنا بنظرات ملؤها العطف والود ، وقد استندنا بالمرافق الى حواجز الجسر واقترب كل من رفيقه يمعن في الالتصاق ، لنحس دفق الحياة ، ودفء الشباب الذي يشيع في جسمينا الفتيين.

لقد ابرقت الى والدي ، اطلب اليه البقاء اسبوعاً آخر او اسبوعين لأنال الصحة التامة والشفاء الكامل. فأقر طلبي واصبح لزاماً علي ان ارى (اوديل) كل يوم الى جانبي ، استأجرت عربة وقمنا بنزهة طويلة بين المزارع والحقول ، وكان يخيل الي ،وانا اتناول الغداء مع (اوديل) في احد الفنادق المظلمة الرطبة ، انني سأقضي العمر بقربها ، وكانت عند العودة ـ والليل قد ارخى سدوله ـ تدس يديها برفق بين يدي ، وفي المساء وجدتني قد سطرت في دفتري هذه الكلمات : « اي عطف كبير غمرنا به اؤلئك السواقون والخدم والفلاحون. انهم أدركوا ، ولا شك ، ان ملاك الحب يرفرف حولنا . وانه لشيء حبيب الى النفس أن أنكر ، عندما أكون بقربها ، كل شيء لا يمت اليها ولا يصدر عنها ، وهي ايضاً تنكر كل مالا يتصل بي . ان في وجهها تعبيراً حلواً رائعاً ،ينم عن الاستسلام والذهول ، وفيه من الكآبة الشيء الكثير ، فكأنها تحاول ايقاف دورة الزمن والاستمتاع بنعيم اللحظة الحاضرة التي تود ان تبقيها منطبعة في عينيها » .

آه ! كم أشعر ، حتى الآن ، بنشوة ذلك الحب الذي ملأ قلبي خلال اقامتي في فلورنسا . لقد كانت اوديل على درجة من الجمال ، كنت أشك معها في دنيا الواقع الملموس . كنت أدير وجهي وأقول لها : « سأحاول البقاء خمس دقائق دون ان انظر اليك » ولكنني لم استطع المقاومة ابداً اكثر من ثلاثين ثانية . كان في كل ما تقوله الكثير من السحر والشعر ، ومع أنها كانت مرحة طروباً ، فقد كانت تغلف أحاديثها ، من وقت لآخر ، بمسحة من الكآبة التي تشيع فجأة في الجو الرعب من شيء مبهم فاجع ، فما معنى تلك الجملة التي كانت ترددها ؟ « لقد قضى عليها قدر محتوم ... انتظري ... نعم .. لقد قضى عليها قدر محتوم ، يا ايتها الفتاة ذات الشعر الذهبي ،ارجعي الى نفسك وخذي حذرك » ففي أية

قصة قرأتها من قصص الاطفال ؟ ومن اية رواية فاجعة شعبية سمعتها ؟... انني لا أدري على التحقيق . وفي احدى الامسيات العذاب ، والشفق الوردي يغطي الافق ، وفي غابة زيتون دافئة منعزلة ، اعطتني شفتيها للمرة الأولى وهي ترمقني بنظرات كئيبة حلوة قائلة : « اتذكر ياعزيزي قول جولييت ؟.. اني مرهفة الحس ، رقيقة القلب ، ولربما انكرت فيّ عند الزواج سلوكاً قد يصير الي شيء من الخفة والطيش » .

اني لأتخيل ، والغبطة تملأ نفسي ، حبنا في ذلك العهد . لقد كان عاطفة جميلة جداً ، وكانت اشد عنفاً عند (اوديل) . على أن مبعث العاطفة عندها شيء من الكبرياء في أكثر الاحيان . لقد أوضحت لي ، فيما بعد ، ان حياة الدير ، ثم الحياة مع أم لا تكن لها شيئاً من الحب ،دفعها الى حياة الوحدة والانطواء على النفس .وعندما أتيح الظهورلتلك النار الكامنة ، أخذت تظهر بشكل لهيب قوي متقطع كان لقلبي مصدر الدفء والحياة .

واخيراً دعاني والدي للقدوم الى باريس ، ببرقية مزعجة ، فكان لزاماً علي أن أعلن ذلك الى اوديل ، وكنا حينئذ عند (كاردي) ، فلم يأبه الناس الى سفري ، وعادوا الى حديث هام ، يتصل بالمانيا ومراكش،وعندما خرجنا قلت لأوديل :

ان ماقاله كاردي لجدير بالاهتمام . فأجابتني بيأس ظاهر :

– انني لم استمع الا الى شيء واحد ، هو أنك ستذهب .

- ٥ -

لقد تركت فلورنسا بعد ان تعاهدنا على الزواج ، وكان من الضروري أن أطلع والدي على مشروعي هذا ، وكان يداخلني شيء من القلق والاضطراب كلما فكرت بذلك ، لأن الزواج عند عائلة (مارسنا) هو دوماً أمر يهم جميع العائلة ، فأعمامي تداخلوا في الامر واخذوا يستطلعون الاخبار عن عائلة (ماله) . فماذا جمعوا من المعلومات ؟ أنا لا أعلم شيئاً عن عائلة (اوديل) حتى أني لم ار والدها قط . لقد قلت لك ان تقاليد آل مارسنا الغريبة تقضي بألا تصل الاخبار الهامة مباشرة الى من يهمهم أمرها الا بواسطة ، وبعد أخذ كل أسباب الحيطة والحذر . لذلك رجوت الخالة (كورا) ، وهي مستودع السر عندي ، ان تكون الوسيطة فتطلع والدي على أمر خطبتي ، وكانت سعيدة دوماً عندما يتاح لها أن تظهر قيمة معرفتها بالحياة والناس ، تلك المعرفة الواسعة الجديرة بكل اعتبار واهتمام ، وكان الاشخاص الذين تستقي أخبارها منهم يحتلون مراكز عالية في الهيئة الاجتماعية ، فاذا أرادت أن تستوضح عن بعض التفاصيل في حياة عريف بسيط ، فان الخالة (كورا) لا تستوضح ذلك الا من وزارة الحربية مباشرة . واذا أرادت أن تستعلم عن طبيب ناشيء في حي متواضع في (ليموج) ، فلا تطلب هذا الاستعلام الا من أحد جراحي مستشفيات باريس لذلك عندما ذكرت لها اسم السيد (ماله) أجابتني بما كنت أنتظره منها وأتوقعه ، فقالت :

– اني لا أعرفه ، ولكنه اذا كان ذا مركز مرموق فسأعلم ذلك بسرعة من صديقي (برتو) ، أنت تعرف ذلك المهندس ، فهو من مهندسي (المعهد) وقد دعوته مرتين في الشتاء الماضي ، لان اندره المسكين يحب الصيد بصحبته .

مضت أيام فاذا بي أراهـا وقد سترت وجهها غلالة من الحماسة الكئيبة فقالت لي :

– آه ! لقد اسعفك الحظ في أمرك ياصغيري المسكين . ان هـذا الزواج لايصلح لك ولا تصلح له . اني اتصلت بالكهل برتو ، وهو يعرف « ماله » حق المعرفة ، فقال انه رجل لطيف موهوب ، ولكن لم يحـالفه النجاح ، لانه لم يحـاول أبداً مبـاشرة عمل من الاعمـال ، هو من طراز المهندسين القادرين على رسم الخطط ووضع التصاميم ، ولكنهم لايسهرون على على اعمـالهم ولا يراقبونها مراقبة فعالة، فيؤدي ذلك الى خسرانهم لعملائهم وزبنهم ... وماله هذا تزوج امرأة عرفتها ، فيما سلف ، باسم مدام بوهمر ، ولقد تذكرتها عندما لفظ برتو اسمها ... هورتانس بوهمر ،نعم انا متأكدة من ذلك .. وهذا هو زوجها الثالث ... والظاهر ان ابنته ، كما اخبرتني ، رائعة الجمال ، حلوة التقاطيع ، وطبيعي جـداً ان تقع من نفسك موضع الرضى والقبول . ولكن يجب عليك ، يافيليبي الصغير، ان تؤمن بخبرتي وتثق بتجاربي ، فانا أقول لك ناصحة : لاتقترن بها ، ولا تتحدث بذلك ، لا الى أبيك ولا الى أمك ، والامر بالنسبة لي بسيان (لقـد رايت في حياتي أنماطاً شتى من الناس) أما والدتك المسكينة ... فلا استطيع تخيلها مع هورتانس بوهمر . آه كلا يا الهي!

قلت للخالة كورا ان اوديل تختلف عن عائلتها اختلافاً كبيراً ، واني قد اتخذت قراري بهذا الشأن ، ومن الخير ان يلاقي كل تأييد وقبول . وأخيراً ، وبعد شيء من الممانعة ، رضيت الخالة كورا ان تفاتح والدي بالموضوع ، فهي من جهة ، سليمة النفس ، رضية الخلق ، وهي تشبه من جهـة اخرى ، اولئك السفراء الشيوخ الذين يقومون بالمفاوضة بلذة وحماسة ، فهم عندما يلحظون اضطرابا في أفق العلاقات الدولية ، يداخلهم شيء من الخوف لانهم محبون للطمأنينة والسلام ، ويشعرون ايضاً بشيء من الغبطة الخفية لان ذلك يسمح لهم في اظهار موهبتهم الحقيقية الوحيدة .

كان والدي هادئاً سمحاً ، فطلب الي امعان الروية ، واطالة التفكير فيما

أنا قادم عليه ، أما والدتي فتلقت فكرة زواجي بغبطة وسرور بادىء الامر ، ولكنها اجتمعت بعد ايام بصديقة لها عجوز تعرف اسرة (ماله) فقالت لوالدتي ان وسط تلك الاسرة وسط متحرر كثيراً من تقاليد الاخلاق ، فقد كانت للسيدة (ماله) سمعة سيئة ، ولا يزال الناس يذكرون لها بعض العشاق . اما (اوديل) فلا يعلم عنها شيء أبداً على التحقيق . ولكن من المؤكد أنها نشئت تنشئة سيئة وانها لاتبالي أن تخرج وحدها . على انها ، من جهة اخرى ، بارعة الحسن فائقة الجمال ، وقد سأل عمي (بيير) وكان بشاركهـــا الحديث بالطبع ، فقال :

ـ وهل هم على شيء من الثروة ، وسعة الحال ؟ أجابت والدتي :

ـ لا اعلم على التحقيق . ويبدو أن هذا السيد (ماله) رجل على شيء من الذكاء ولكنه غريب الاطوار ... فما هم خلقوا لنا .

ان تعبير (ما خلقوا لنا) هو من التعابير (المارسينية) الحقيقية ، وهو في الوقت نفسه حكم علي رهيب مخيف . كنت على يقين تام ، طوال عدة اسابيع ، انني سألاقي عنتاً كبيراً ، وسأحمل مكروهاً عظيماً حتى استطيع الاقناع بقبول زواجي . وبعد وصولي الى باريس بخمسة عشر يوماً ، جاءتها (اوديل) بصحبة أمها ، فكان لزاماً علي أن أقوم بزيارتها . تقيم اسرة (ماله) في شـــارع (لافييت) في الطابق الثالث ، و(اوديل) هي التي استقبلتني وانتهت بي الى مكتب والدها . لقد فطرت نفسي على حب النظام الدقيق القاسي الذي كان يتطلبه والدي من مستخدميه ، لذلك عندما رأيت هذه الغرف الثلاث المظلمة ، وذلك الورق المقوى الممزق ، والرسام الكهل ، ادركت عندئذ ، صدق المخبر الذي وصف السيد (ماله) لحـالتي . ان والد (اوديل) ثرثار بعيـد عن الاتزان ، تلقاني ببشاشة مفرطة ، وود كثير . واخذ يحدثني عن فلورنسا ، وعن (اوديل) بلهجة ملؤها العطف والحنان . ثم اطلعني على تصاميم بنايات (بأمل) في تشييدها في (بيارتيس) .

لقد تمثل في خاطري ، وانا استمع له ، خائفاً ضجراً ، الاثر السيء الذي قد

بحدثه في أسرتي ، لقد دعتني السيدة «ماله» لتناول طعام العشاء في الغد ، وقد جئت الساعة الثامنة فوجدت اوديل وحيدة مع اخويها ، فالسيد ماله في غرفته منصرف الى المطالعة ، أما السيدة ماله فلما تعد بعد الى المنزل . ان الطفلين ، جان ومارسل ، يشبهان اوديل الى حد كبير ، ومع ذلك فقد أحسست منذ اللحظة الاولى انه من الصعب ان تربط بيننا روابط الحب والود . لقد حاولا اظهار عواطف الصداقة والاخوة ولكنني لحظت في تلك السهرة ، مرات عدة ، انهما يتبادلان النظر الشذر ويمطان شفاههما الى الامام كأنهما يقولان : (على كل حال ليس هو بمضحك ..) . وعند الساعة الثامنة والنصف أقبلت السيدة ماله ولم تعتذر عن تأخرها . وكذلك أقبل السيد ماله عندما شعر بقدومها يحمل كتابا بيده كطفل ساذج . وعندما هممنا بالجلوس الى المائدة أدخلت الخادمة شابا امريكياً ، هو صديق للطفلين ، ولم يكن مدعواً ، فاستقبل بصيحات الفرح والابتهاج . لقد احتفظت اوديل — في هذا الجو المشوش المضطرب — بمظهر وقور اشبه بآلهة سمحاء ، كانت جالسة الى جانبي تبتسم الى مداعبات ومزاح اخويها ، ثم تأخذ في تهدئتها واسكاتها كلما احست مني تبرماً ونفوراً . لقد تراءت لي اوديل اشد جمالا واكثر كمالا مما كانت عليه في فلورنسا ، ولكنني شعرت بألم محض خفي ، لا أستطيع تحديده ، عندما رأيتها في هذا الوسط العائلي .

وقام والداي ، بدورهما ، بزيارة أسرة ماله وقد احتفظا بشيء من الاستكبار المهذب رغم ما أظهرته أسرة أوديل من انشراح فياض وابتهاج سمح . وكان والدي ، من حسن الحظ ، شديد التأثر بالجمال ، لذلك استحوذت عليه اوديل منذ اللحظة الاولى واستأثرت بلبه ، قال لي ونحن نغادر المنزل :

— انا لا اعتقد ان الحق بجانبك . . ولكني ادركت ماترمي اليه وقالت والدتي :

— انها لجميلة ورائعة حقاً ، ولكنها غريبة الأطوار ، تبدي كثيراً من المضحكات وسخف الامور ، ومن الواجب أن تأخذها بتطور كبير .

كانت اوديل تعلق أهمية كبرى على اجتماع آخر يجمع بيني وبين صديقتها المفضلة ماري تيرز (وتدعوها ميزا) ، وكانت تراه أشد خطراً من اجتماع الاسرتين . اني لأذكر انني قد تهيبت الموقف ودخلني شيء من الرعب اذ شعرت ان لرأي ميزا مكانة كبرى عند اوديل ، ومع ذلك ، لم انكر منها شيئاً ، فهي تتمتع بظرف كثير وتناسق في التقاطيع ، ولكنها تبدو ، بجانب اوديل ، على شيء من الكمدة والتجهم . وكان يؤلف هذان الوجهان ، احدهما بالقرب من الآخر ، تضاداً جميلاً محبباً ، وقد اعتدت أن أتخيلها معاً ، وأن أنظر الى ميزا كأخت لأوديل . ومع ذلك فقد كانت اوديل تتمتع برقة طبيعية تجعلها على اختلاف كبير عن ميزا مع أنها يرجعان في نشأتهما الى وسط اجتماعي واحد . كنت ألحظ ، في الحفلات الموسيقية التي كنا نختلف اليها أيام الاحد في عهد الخطوبة ، كنت الحظ ان اوديل اشد اصغاء من ميزا ، فكانت تستمتع للموسيقا ، وهي مغمضة العينين ، كأنها تريد ان تجعل الالحان تنساب في جميع اجزاء نفسها ، وكانت تبدو سعيدة هانئة وقد تناست من حولها . اما ميزا فكانت تدير ، فيما حولها ، عينين فلقتين ، تتعرف الى الاشخاص ، وتفتح البرنامج لتقرأ فيه ، وكانت تضايقني بحركتها هذه المتصلة ، ولكنها كانت ، على كل حال ، رقيقة محببة الى النفس ، قريبة الى القلب ، مرحة دوماً ، راضية أبداً . اني لأحفظ لها صنيعاً مشكوراً وقولاً مبروراً اذ قالت لأوديل أنها تراني رجلا لطيفاً ساحراً .

لقد امضينا رحلة الزواج في انكلترا وايقوسيا . وأنا لا أستطيع أن أذكر عهداً أكثر سعادة وهناء من هذين الشهرين ، كنا في وحدة مزدوجة . وكنا نقيم في فنادق صغيرة جميلة على ضفاف الانهار والبحيرات ، ونقضي سحابة النهار ممددين في قوارب لماعة مسطحة قد جهزت بوسائد زاهية الالوان ، وأخذت اوديل تطلعني على محاسن البلاد وجمال الطبيعة . (وقد تعرفت الى اوديل جديدة كانت مجهولة ، هي اجمل عندي من اوديل فلورنسا) . ان رؤيتها ، ورعشة الحياة تنبض في عروقها ، لشيء جميل ساحر . وفي اللحظة التي تدخل فيها غرفة الفندق ، سرعان ما تحولها الى قطعة فنية . انها تحتفظ دوماً

بتذكارات طفولتها وتتعلق بها تعلقاً ساذجاً مؤثراً ، فأبداً ترين معهـــا تلك الساعة الصغيرة والوسادة المخرمة ومجموعة لشكسبير قد جلدت بجلد ظبي أزرق. وعندما انفصمت ، فيما بعد ، عرا حياتنا الزوجية ، كانت الوسادة المخرمة تحت ابطها أيضا ، ومجلد شكسبير في يدها وهي ذاهبة . انهـــا لتمزج ، وهي تلامس مداخل الحياة ، كثيراً من عناصر التعقل والتفكير بعناصر العاطفة والشعور ، كم أود أن أصفها لك وهي تسير على ضفاف التاميز ، رشيقة خفيفة ، كأن مشيتها رقص موزون .

لقد تراءت لنا باريس عند عودتنا خواء لا طائل تحتها ، واعتقدت الاسرتان أن همنا الاول في أن نحظى برؤيتها ، وأرادت الخالة كورا أن تقيم حفلات العشاء على شرفنا . وتشكى أصدقاء اوديل من انهم حرموا منها طوال شهرين ، ورجوني أن أعيدها اليهم بعض الوقت ، ولكننا لم نكن لنرغب ، لا أنا ولا اوديل ، الا في ان نستمر في الحياة وحيدين منعزلين . ففي الامسية الاولى ، عند ما دخلنا منزلنا الصغير والسجاد لم يفرش بعد ، ورائحه الدهان ندية طرية ، في تلك الامسية الاولى أسرعت اوديل الى الباب وقطعت سلك الجرس بحركة من الشقاوة المرحة ، وبذلك قطعت ما بيننا وبين العالم من أسباب الاتصال وفرضت عليه هدنة موقتة .

قمنا بجولة في أرجاء المنزل وقد سألتني اوديل اذا كان من المستطاع أن يكون لها مكتب صغير الى جانب غرفتها فقالت :

– سأجعل منه زاويتي المفضلة . . ولن تدخله ما لم أدعك الى الدخول ، انك لتعلم ، ياديكي ، حاجتي الملحة الى الحرية . (لقد اخذت تناديني « ديكي » منذ أن سمعت فتاة في انكلترا تنادي شاباً بهذا اللفظ) انت لا تعرفني بعد ، ولكن سوف ترى أنني مخيفة رهيبة .

وجاءت بزجاجة من الشمبانيا وبقطع الحلوى وبطاقة من الاقحوان

الكبير ، واستطاعت أن تخلق من منضدة منخفضة متواضعة ، ومن أريكتين وزهرية من البلور ، استطاعت أن تخلق من ذلك جواً لذيذاً ساحراً . لقد تناولنا عشاء كله مرح وحنو ، فقد كنا وحيدين ومتحابين . انني لا أتحسر على تلك الاويقات بالرغم من أنها قصيرة سريعة الزوال ، فنغماتها الاخيرة مازالت تشيع في نفسي وترن في أذني ، واني لانبين ذلك الصوت الصافي ، الذي أخذ بالخفوت والتلاشي ، كلما أرهفت السمع وأسكت ضجيج الحاضر .

- ٦ -

ومع ذلك يجب أن أسجل ، منذ صباح تلك الامسية ، الصدمة الاولى التي تركت أثراً خفيفا على زجاج حبي الشفاف . كان ذلك في حانوت بائع سجاد ، وكنا نبتاع من عنده الاثاث ، فاختارت اوديل ستائر رأيتها باهظة الثمن ، فدار بيننا نقاش ودي هادىء انتهى بان تخلت اوديل عن رايها . كان البائع شابا وسيما رائع التقاطيع ، فاندفع يؤيد بحماسة وجهة نظر امرأتي مما أثارني وأحفظني . وقد ضبطت على المرآة ، عند ما كنا نغادر الحانوت ، نظرة ذكية تنم عن شيء من الاسف ، تبادلها ذلك البائع مع اوديل . اني لا أستطيع أن أصف لك شعوري في تلك اللحظة ، فقد استطعت الحصول ، منذ عهد الخطبة ، على ثقة مطلقة لا شعورية بان تفكير زوجتي كان منذ ذلك الوقت مربوطا بتفكيري ، وأن آرائي ، بنتيجة ايحاء مستمر طويل ، هي آراؤها . ففكرة الحرية التي يتمتع بها شخص يعيش في كنفي شيء ، كما أعتقد ، عسير على الفهم لا يستطاع ادراكه . وأعسر منه ، وأشق على الفهم ، أن يتآمر ضدي هذا الشخص مع غريب آخر . لا شيء أطهر ولا أبرأ من تلك النظرة العابرة الخاطفة ، فانا لا أتهم ، حتى ولا أستطيع أن أثق باني رأيت شيئا . ومع ذلك ، فاني أشعر بان تلك اللحظة كانت بدء اضطرام الغيرة في نفسي .

أنا لم أفكر أبداً بالغيرة قبل زواجي الا على أنها عاطفة من العواطف التي تمثل على المسرح ، واذا فكرت بها فبكثير من الاشمئزاز والاحتقار . كنت أرى في (عطيل) مثلاً للغيرة الفاجعة ، وفي جورج داندان مثلاً للغيرة المضحكة . أما التفكير باني أستطيع أن أقوم باحد هذين الدورين ، أو بهما معاً ، فأمر بعيد الوقوع جداً . كنت أنا الذي ابدأ بالتخلي عن خليلاتي في اللحظة التي أشعر

فيها بالتعب والاعياء . واذا كن يأخذن باسباب الخيانة ، فما كنت لأطلع على ذلك ابداً . أذكر أن صديقاً شكا لي عذاب الغيرة فقلت له : « اني لا افهمك .. فأنا لا أستطيع الاستمرار في حب امرأة لا تضمر لي الحب ... »

لماذا تثير اوديل في نفسي القلق والاضطراب حين اراها بين رهط من اصدقائها ؟ انها لرضية النفس ناعمة البال ، ومع ذلك فلا ادري كيف تخلق حولها جواً من الغموض والابهام . وما كنت اعرف ذلك منها في عهد الخطبة أو في رحلة الزواج . فالوحدة وامتزاج حياتنا امتزاجاً تاماً لم يتركا مجالا لأي غموض . ولكن سرعان ما اكتشفت في باريس ان هناك خطراً بعيداً متربصاً ، ولكنه لا يزال مبهما في ثنايا المجهول . نعم لقد كنا على وفاق تام وكنا جد متحابين ، ولكنني ما دمت أرغب في أن أكون معك الآن صريحاً صادقاً ، فيجب أن أعترف أنه لم ينقض الشهر الثاني على حياتنا المشتركة ، حتى أدركت أن اوديل الحقيقية ليست في شيء من اوديل التي كنت أحبتها .

وحبي لأوديل الجديدة لم يكن أقل من الاولى ، ولكنه حب من نوع آخر . كنت أحسب في فلورنسا انني وجدت أخيراً (الفارسة) ، ضالتي المنشودة ، فأبدعت لها في نفسي صورة خيالية جمعت فيها كل صفات الكمال . كنت مخدوعاً وفي ضلال كبير . فما اوديل من عنصر الآلهة قد صنعت من العاج وضياء القمر . هي امرأة ، مثلي ومثلك ، ومثل جميع هذا الجنس البشري البائس ، هي معقدة متناقضة ، وهي تراني الآن ، ولا شك ، اختلف كل الاختلاف عن ذلك العاشق الولهان الذي عرفته في فلورنسا .

كان لزاماً علي ، حين عدت الى باريس ، أن أستأنف العمل بجد ونشاط فأوزع الجهد بين معمل كانديما ومكتب باريس . فوالدي الذي انهمك في مجلس الشيوخ كان متعباً مكدوداً طوال مدة غيابي . وقد بدأ أحسن عملائنا يشكون لي ما أصابهم من اهمال وعدم اكتراث . كان مركز عملي بعيداً عن المنزل ،

فكان من الصعب أن أعود وقت الظهيرة لتناول الطعام ، واذا أضفت الى هذا أنه من الواجب علي أن أقضي يوماً في كانديما كل أسبوع ، وانه من الصعب ايضاً اصطحاب اوديل في هذا السفر الشاق السريع ، ادركت بان حياتنا اصبحت بسرعة ، وبالرغم عنا ، كثيرة الافتراق .

كم كنت اشعر بالسعادة والهناء عندما كنت أفكر ، وانا عائد الى المنزل ، أنني سأرى وجه زوجي الجميل . كنت احب الجو الذي يحيط بها . أنا لم أعتد الحياة وسط الاشياء الجميلة ، ولكني كنت أشعر بحاجة ملحة الى ذلك ، وكان ذوق اوديل يملأ نفسي بهجة وسحراً . فالاثاث في منزل والدي بكانديما كان كثيراً جداً ، ومكدساً منذ ثلاثة أو اربعة اجيال ، دون اي فن او ذوق ، فكانت تزدحم به منافذ الغرف المفروشة بالسجاد ذي اللون الازرق المخضوضر حيث صور الطواويس الكبيرة تتيه بين الاشجار . اما اوديل فقد طلت جدران المنزل بلون واحد ناعم مريح . هي تحب الغرف شبه عارية وتفضل من السجاد ما كان زاهي اللون قليل الزخارف والنقوش . كنت اشعر عندما أدخل غرفتها بفيض من الجمال الصارخ الذي يثير في نفسي اضطراباً غامضاً لذيذاً . فامرأتي كانت تتمدد على كرسي طويل ترتدي ثوباً ابيض في أكثر الاحيان . وبالقرب منها (وعلى المنضدة المنخفضة التي تناولنا عليها عشاءنا الاول) كانت تقوم زهرية ضيقة العنق تحمل زهرة وحيدة او اوراقاً خفيفة في بعض الاحيان . ان اوديل تحب الازهار حباً جماً ، وتفضلها على كل شيء في الوجود . وأنا أيضاً أخذت في حبها وبدأت اعتاد اختيار الازهار لها حتى تعلمت ان اتتبع تعاقب الفصول من النظر الى واجهات بائعي الازهار . وكنت أسر لعودة زمن الاقحوان والسوسن لان الوان هذه الازهار ، الصارخة منها والكامدة ، كانت تسمح لي أن أرسم على شفتي زوجي ابتسامة اوديل السعيدة المائتة . فكانت تنهض ، مغتبطة فرحة ، كلما رأتني عدت من المكتب احمل لها طاقات

الورد وكانت تقول : « اشكراً لك باديكي ... » فتعجب بها ، وهي نشوى مأخوذة ، ثم تثوب الى نفسها وتقول : « اريد ان اتعهد ازهاري » فتقضي عندئذ ساعة كاملة تختار الأصيص المناسب والضوء الملائم لتعطي الى ساق الزهرة الوضع الفاتن الجميل .

على ان السهرة كانت تنقلب اكثر الاحيان ، الى شيء من الكآبة والكمود ، اشبه بتلك الايام المصحية المشرقة التي سرعان ماتفجؤها السحب الكبيرة ، فترد الجو مظلماً كئيباً على غير ميعاد . لم يكن لدينا الشيء الكثير لنتناوله بالحديث ، وقد حاولت مراراً ان اتحدث الى اوديل عن اعمالي ولكن قليلاً ما كان هذا الحديث يثير في نفسها الاهتمام . واستفدت الآن كل جدة وطرافة في استماعها لي وانا اقص عليها ذكريات الطفولة والصبا . اما افكاري فما كان يصيبها من التجديد الا القليل ، لاني لا اجد الوقت للمطالعة ، وكانت هي تشعر بذلك . وحاولت ان اصل حياة صديقي الحميمين بأسباب حياتنا ، ولكن اندره هالف لم يرق في عيني اوديل ، اذ وجدت فيه شاباً ساخراً حاقداً ، قلت له مرة :

– انك لا تحب اوديل ، اجاب :

– اني اراها جميلة جداً .

– نعم ، ولكن الا تراها شديدة الذكاء ؟

– كلا ... على انه ليس من الضروري ان تكون المرأة حادة الذكاء .

– انت على خطأ وضلال ، فأوديل شديدة الذكاء ، ولكن ذكاءها من طراز يختلف عن ذكائك اختلافاً كبيراً . ذكاؤك من النوع الحدسي المحسوس ... اجاب :

– قد تكون على صواب .

اما برتران فان الامر معه لمختلف جداً ، لقد حاول ان يمد بينه وبين اوديل اسباب صداقة حميمة عميقة ، ولكن لم يكن ليلقى عندها الا كل ممانعة وصد

وعناد . كنا نقضي ، انا وبرتران ، أمسية كاملة ، ندخن وندخن ، وقد جلس الواحد قبالة الآخر ، نحاول بناء عالم جديد . أما اوديل فكانت تفضل الشخوص الى ملاعب التمثيل ومقاصف الليل والاعياد الغريبة ، لتذهب عن نفسها متاعب النهار . لقد شردت بي ، ذات مساء ، ثلاث ساعات تنتقل فيها بين الحوانيت وحلبات السباق والعاب الصيد واليانصيب . كان اخواها برفقتنا ، وكانت نجد في هذين الطفلين المدللين المرحين الطائشين كل متعة وسرور . قلت لها ، وقد انتصف الليل ، وبعد يا اوديل ، أفلا يكفيك كل هذا ؟ تأكدي ان الامر يدعو الى شيء من السخرية والضحك . فأية لذة تجدينها في القاء الكرات على الزجاجات ، وفي الدوران بسيارات اصطناعية ، او في ربح مركب من الزجاج بعد انتظار أربعين دورة ؟ فأجابت بجملة لفيلسوف كنت دفعتها لقراءته : « لا ضير على لذة زائفة مادام الانسان يعتقد انها حقيقية واقعية » ثم تأبطت ذراع اخيها وانجهت بسرعة نحو الرماية التي تجيدها كثيراً ، فقد أصابت عشر بيضات بعشر طلقات وعندئذ رجعت راضية مرضية .

كنت أعتقد ، عند زواجنا ، أن اوديل تخشى المجتمع كما أخشاه ، ولكنني كنت على ضلال . فأوديل تحب مآدب العشاء ، وحفلات الرقص ، وهي حين اكتشفت تلك المجموعة البهيجة المشرقة التي تعيش في كنف الحالة كورا ، اصبحت كل رغبتها في الذهاب الى شارع (مونسو) كل ثلاثاء . أما رغبتي الوحيدة فكانت على النقيض من ذلك . كنت أرغب منذ زواجنا في أن تكون اوديل لي وحدي . فلا يداخلني هدوء النفس واطمئنان البال الا اذا تأكدت من ان هذا الجمال الوافر الفياض قد أغلق عليه باحكام في دائرة المنزل الضيقة . وكان هذا الاحساس قوياً عندي عنيفاً ، حتى كنت أشعر بالسعادة عندما تضطر اوديل ، وهي الرقيقة المتعبة ، الى ان تلازم الفراش بضعة ايام . كنت عندئذ اقضي السهرة على اريكة بالقرب من سريرها اخوض معها في احاديث

شتى طويلة متشعبة ، وكثيراً ما كنت اقرأ لها في كتاب بعض الفصول . لقد عرفت بسرعة أنماط الكتب التي تستأثر بانتباهها بضع ساعات طوال، فهي لم تكن على شيء من فساد الذوق وسوء الاختيار ، ولكنها تحب أن يطبع الكتاب بطابع الكآبة الحلوة، والعاطفة العنيفة، ليقع من نفسها الموقع الحسن. هي تحب (دوميتيك) وقصص (تورجينيف) وبعض شعراء الانكليز . قلت لها :

– ان امرك لغريب . . . فالمرء يجدك ، حين التعرف اليك ، على شيء من الخفة والصبوة والمرح ، ولكنك في الواقع ، لاتحبين الا الكتب الكئيبة الحزينة .

– انا قاسية جداً ياديكي ، ولعل هذا هو الذي يدفعني لان اظهر بمظهر الخفة والمرح . أنا لا أريد أن أتكشف لكل الناس عارية كما أنا .

– حتى ولا لي ؟

– بلى ... أتذكر عهد فلورنسا ؟

– نعم لقد عرفتك بفلورنسا حق المعرفة . . . ولكنك الآن قد بدلت ياعزيزتي شخصاً آخر .

– من الخير الا يظل المرء على حالة واحدة !

– كأنك انقطعت عن لطيف الاشارة وجميل القول .

– ان الاشياء الجميلة لاتقال حسب الطلب . اعتصم بالصبر . فالامر الى معاد . . .

– كما في فلورنسا ؟

– الحق ياديكي أنني لم أتبدل قط .

ثم تمد يدها فآخذها بين يدي ، وتستأنف أحاديثها الطويلة المتشعبة عن أسرتي واسرتها ، عن ميزا ، وعن ثوب ستبتاعه . . . وعن الحياة . كم هي كثيرة

الشبه في هذه الليالي ، حيث تكون متعبة نائمة ، باوديل المثالية التي ابتدعتها في مخيلتي . انها ، وهي الظريفة الواهنة ، تحت امرتي وفي متناول يدي ، فكم أحمد هذا الوهن والاعياء . ولكن حين تعاودها القوة ، وتملك القدرة على الخروج ، اعود فأجد فيها اوديل التي يكتنفها جو من الغموض والابهام .

أبداً لم تقص على بصورة عفوية ما أتت في غيابي ، من مختلف الاعمال ، كما يقص كثير من النساء الثرثارات الشفافات . فهي تجيب ، عندما ألقي عليها بعض الاسئلة ، بكلمات قلقة مبهمة ، لا أستطيع أن أتخيل معها تعاقب الحوادث بصورة واضحة مرضية . انها تتكلم بكثير من الاهمال وعدم الاكتراث وازدراء المنطق والواقع . فهي ترتبك عندما أفجؤها بالاستفسار عن امر ظاهر التناقض ، أشبه بطفل قد أرهقه معلم اخرق بأسئلة صعبة معقدة .

عدت يوماً ، على خلاف عادتي ، الى المنزل لتناول طعام الغداء ، فألفيت اوديل لدى الباب تطلب من الخادمة قبعة ومعطفاً وكانت الساعة الثانية ، فلت لها :

ـ ماذا عسى أن تفعلي في هذه الظهيرة ؟

ـ اني على موعد مع طبيب الاسنان .

ـ هذا صحيح ياعزيزتي ولكني سمعت ، وانت تتحدثين معه في الهاتف ، أن موعدك الساعة الثالثة ، فماذا ستصنعين حتى الوقت المضروب ؟

ـ لا شيء ، سوى نني اود ان امشي على مهل .

ـ ولكن هذا محال ـ ياطفلتي ـ فطبيب الاسنان في شارع مالاكوف ، فلا تحتاجين للوصول اليه اكثر من عشر دقائق ، ولديك ساعة كاملة فالى اين تذهبين ؟ اجابت قائلة : « انك لتسلبني » وخرجت .

وفي المساء لم استطع ان امنع نفسي عن سؤالها بعد الطعام ، قلت :

ـ حسناً ، ماذا صنعت بين الثانية والثالثة ؟

لقد حاولت أن تأخذ الامر ، في البدء ، بشيء من الدعابة والمزاح. ولكن لما رات أنني ملح بسؤالي ، نهضت الى فراشها دون ان تلقي عليّ تحية المساء .

وهذا لم يحدث لنا أبداً . لحقت بها لاطلب منها المعذرة فبادلتني قبلة الصفح ، ولما رأيتها قد استعادت الهدوء والاطمئنان ، عدت فسألتها :

ـ والان ، كوني لطيفة لبقة ، وحدثيني عما قمت به بين الثانية والثالثة .

فانفجرت ضاحكة ، وبعدمدة سمعت حركة تنبعث من جوف الليل ، أضأت المصباح وذهبت الى غرفتها فألفيتها تبكي بهدوء . فما علة بكائها يا ترى ؟ أمن خجل تبكي أم من ضجر ؟ أجابت على أسئلتي بقولها :

ـ كن حكيماً بصيراً . اني لأحبك حباً كبيراً ، ولكن احذر فأنا شديدة الكبرياء .. فمع حبي الشديد لك ، سأكون قادرة على تركك بعد حوادث كهذا الحادث ... ربما كنت على خطأ أو ضلال ولكن .. يجب ان تقبلني كما أنا . قلت لها :

ـ سأبذل طاقتي يا عزيزتي ، ولكن حاولي ، أنت أيضاً ، ان تبدلي من نفسك ولو بمقدار قليل . انت شديدة الكبرياء كما تقولين ، أفلا تستطيعين التغلب بعض الاحيان على هذه الكبرياء ؟

هزت رأسها بحركة تدل على العناد والتصميم وقالت :

ـ كلا ، أنا لا أستطيع أن أبدل شيئاً من نفسي . انك تقول لي دوماً ان ما تحبه فيّ ، هو انني طبيعية وعلى السجية ، فلا تكلف ولاتضع ، فاذا بدلت من نفسي فسأفقد مزية البقاء على السجية والفطرة . أنت الذي يجب ان يبدل اذاً من نفسه .

ـ انا لا اقدر يا عزيزتي ان اكون في حالة افهم معها شيئاً

لا يستطاع فهمه . لقد ربيت على يد والد علمني ، قبل كل شيء ، احترام الحقيقة والواقع ... حتى اصبح تفكيري مطبوعاً بهذا الطابع ... كلا ، انا لا استطيع ان اقول بصراحة وصدق انني فهمت ماذا صنعت بين الثانية والثالثة .

– آه ! انه ليكفيني ما تقول ! قالتها بلهجة مرة قاسية ، ثم استدارت على جنبها واستسلمت للرقاد .

كنت اتوقع ، في الغد ، ان اراها محزونة ، كاسفة البال ، ولكنها تلقتني ، على العكس ، بكل بهجة وبشاشة ، وكأنها نسيت كل شيء . كان اليوم يوم احد ، فطلبت ان نذهب لاستماع الموسيقا ، وكانوا يعزفون « مباهج الجمعة المقدسة » وكنا نحب هذا اللحن كثيراً . واقترحت ، عند خروجنا من الحفلة ، ان نتناول الشاي . لا شيء اوقع في النفس واشد تأثيراً من رؤية اوديل المرحة الطروب السعيدة بالحياة . فلا استطيع ان اصدق ، وهي امامي مشرقة الوجه ريا ، ان نزاعنا بالامس كان امراً حقيقياً . كلما ازددت معرفة بامرأتي ، ادركت انها تملك موهبة النسيان التي تجعلها اشبه بالاطفال . ولا شيء كهذا اشد تناقضاً مع طبعي وتفكيري الذي اعتاد الجمع والمقارنة والتدوين . ان الحياة كانت ذلك اليوم ، بالنسبة الى اوديل ، قدحاً من الشاي وشطيرة بالزبدة الطازجة . كانت تبسم لي وكنت افكر بهذا القول : « اكثر ما يميز الاشخاص ان بعضهم يعيش في الماضي على الاخص ، وبعضهم الآخر يعيش في اللحظة الحاضرة فحسب . »

كنت لا ازال اشعر بالالم والعذاب ، ولكن لم اكن بقادر على ان اضمر لها شيئاً من الضغينة والموجدة زمناً طويلا . لقد لمت نفسي وقطعت عليها العهود ، فأقسمت ألا ألقي عليها في المستقبل أسئلة حمقاء

لا طائل تحتها ، وأن أمنحها الثقة المطلقة . لقد عدنا الى البيت مشيا على الاقدام بين التويلري والشانزليزه . كانت اوديل تستنشق هواء الخريف الندي بنشوة وذهول .

وكما حدث لي في الربيع وانا في فلورنسا ، كذلك كان يخيل الي الآن ، ان الاشجار الشقراء ، والضياء الذهبي الازرق ، وحركة باريس الطروب ، ومراكب الاطفال ذات الاشرعة التي تتدلى على سطح البحيرة الكبرى ، ثم فوارات الماء اللجينية المتدفقة ، كل هذا قد تعاون على انشاد لحن « الفارس » ، ووجدت نفسي أعيد جملة أحبها كثيراً قد تعودت أن اطبقها في علاقاتي مع اوديل وهي : « ها أنا ذا ، كعبدك بين يديك ، على استعداد لكل شيء ، لانني لا أرغب في أمر من أجلي ، بل من اجلك » وهكذا فاني شعرت بالراحة والرضى عندما توصلت للتغلب على كبريائي ، والقيت السلاح صاغراً ، لا أمام اوديل ، بل أمام حبي لأوديل .

— ٧ —

كانت ميزا الشخص الذي تراه اوديل كثيراً ، فكانا يتصلان هاتفياً صباح كل يوم ، وحتى كل ساعة في بعض الاحيان ، وكانا يخرجان معاً عصر كل يوم ، كنت أحمد كثيراً هذه الصداقة البريئة التي تملأ فراغ اوديل دون أن تعرضها لشيء من الخطر حين أكون منهمكاً في مكتبي . ولقد كنت أجد لذة كبرى في رؤية ميزا تقضي سحابة كل احد بيننا . وكثيراً ما اقترحت على زوجي أن تصحب صديقتها معها في تلك الرحلات القصار التي كنا نقوم بها بين حين وآخر ، والتي كانت تمتد يومين أو ثلاثة أيام .

أني أود الآن أن أشرح لك تلك المشاعر والاحاسيس التي كانت تجيش في نفسي وتقود خطاي ، فذلك يعينك ، فيما بعد ، على تفهم الشأن الخطير الذي احدثته ميزا في مجرى حياتي . يجب أن أسجل أولا أنني اذا كنت لا أزال راغباً في أن أكون وحيداً مع اوديل ، كما كان شأني خلال الاسابيع الاولى من زواجنا ، فانما مرد ذلك ، الآن ، الى خوف مبهم مما عسى أن يحمله أشخاص جدد أكثر من أن يكون مجرد اللذة والاستمتاع . لم ينقص حبي لها أبداً ، ولكنني على يقين أن فتوراً أخذ يشيع في علاقاتنا ، وان المحادثات الجدية العميقة أصبحت لاتتقبلها الا بكثير من التصميم والارادة المتعبة . وكنت أعلم أيضاً ، بالمقابل ، أنني بدأت استسيغ تلك الثرثرة الطويلة التي لاتنتهي عند حد ، والتي كان يشوبها شيء من الكآبة والطيش وكثير من الظرف ،

تلك الثرثرة التي هي لغة اوديل الحقيقية عندما تكون على سجيتها . واوديل لاتظهر عارية على حقيقتها الا أمام ميزا . فعندما يأخذان باطراف الحديث تتكشف لي ، من خلال حديثها ، تلك المسحة الساذجة البريئة التي تطبع تفكير اوديل ، والتي كانت تبعث في نفسي الكثير من السلوى ، وتؤثر بي تأثيراً قوياً ، لانها ترسم لي الصورة التي ربما كانت عليها اوديل وهي طفلة لعوب . لقد سخرت منها ، ذات مساء ، وكنا في احد فنادق دييب ، وقد أخذتا تتشاجران كطفلين ، وانتهى ذلك بان القت اوديل وسادة على رأس ميزا صائحة « باللطفلة الخبيثة » .

وكانت عاطفة أخرى أشد اضطراباً تجيش في نفسي أيضاً ، تلك العاطفة التي تضطرم دوماً عندما تختلط امرأة شابة بحياة الرجل اليومية بسائق الظروف ، لابدافع من دوافع الحب . فاسفارنا المتصلة من جهة ، وجو المباسطة وعدم الكلفة الذي شجعتني اوديل عليه من جهة اخرى ، كل ذلك جعلني أشعر بعاطفة من الود نحو ميزا أشبه بالتي يشعر بها المرء نحو خليلة . كنا نتناقش يوماً حول قوة المرأة الجسمية فانتهت المناقشة بان تحدتني وطلبتني للمبارزة ، تصارعنا برهة والقيتها على الارض ، ثم نهضت خجلا فقالت اوديل :

— يالكما من طفلين !

وظلت ميزا ممددة على الارض ، مدة طويلة ، تحدق بي وتحدق . ثم ان ميزا ، من جهة أخرى ، هي الشخص الوحيد الذي كنا نتلقاه ، أنا واوديل ، بقدر واحد من الغبطة والسرور . وقد انقطع هالف وبرتران عن زيارتنا ، وما كنت بآسف ، اذ مالبثت ان شعرت نحوهما بشعور اوديل نفسه . وكنت أحس بنفسي بانقسام غريب عندما اراها تتحدث اليها . فعندما أراها من خلال نظرتها اليها ، أجد أنها تعالج القضايا

الجدية بخفة لاتليق ، واهمال غير مستطاب . ولكن توصلت في الوقت نفسه ، الى تفضيل خفتها واهمالها على نظريات أصدقائي الجدية الجافة . وهكذا كنت خجلا بزوجي امام اصدقائي ، فخوراً بها أمام نفسي . وكنت أقول ، بعد ذهابها ، ان أوديل ، بالرغم من كل شيء ، تمتاز عليها وتفضلها باتصالها العفوي المباشر مع الطبيعة والحياة .

لم تكن اوديل لتحب أسرتي ، وما كنت لأحب أسرتها كثيراً ، فقد ودت والدتي ان تسدي اليها النصح فيما يمس انتقاء أثاث المنزل وطريقة حياتها ، وفيما يمس واجبات الزوجة الشابة . ولا شيء في الحياة أشد وطأة على اوديل من توجيه النقد واسداء النصح . كانت تصطنع في حديثها مع اسرتي لهجة تجرحني كثيراً . حتى والدي نفسه ، وهو الذي يضمر لها كل حب واعجاب ، لم يكن بمقدوره ان يمنع نفسه من الغضب . ولكنه كان كثير السمو ، شديد الحذر ، فكان يكظم غيظه ويجهد لاخفاء استيائه . وكنت أقدر ، وأنا العارف بشدة حيائه ، وقد ورثت عنه هذا الحياء ، كنت أقدر أي ألم يمض تبعثه لهجة اوديل في نفسه . فزوجي اذا ساورها شك أو غضب ، فانها تعبر عما ساورها ، وتفصح عنه بقوة وصراحة ، ثم لاتلبث ان تسدل على ذلك ستاراً صفيقاً من النسيان . أما نحن ، آل مارسنا ، فلم نعتد هذه الطريقة في علائق الناس ، ولا هذه النظرة الى صلات الافراد . قالت لي اوديل يوماً : « ان والدتك حضرت في غيابي وسمحت لنفسها أن تبدي للخادم بعض الملحوظات ، لذلك سأخبرها هاتفياً ، انني لا اقبل ذلك منها أبداً .. » فرجوتها أن تتريث قليلا وقلت :

— اسمعي يا اوديل ، أنت في الواقع على حق ، ولكن لا تحاولي أن تقولي لها ذلك بنفسك ، اذ لاتتوصلين الا الى اغضابها ، دعيني أقم

بهذه المهمة ، أو اذا كنت ترجحين ، وهذا الافضل ، فاطلبي الى الخالة كورا ان تقول لوالدتي انك قلت لها بان . .

فانفجرت اوديل ضاحكة وقالت :

– الا تضع حداً لهذه المهازل التي يمثلهـا أفراد أسرتك ؟ . . ان هذا ، في الوقت نفسه ، لشيء فاجع رهيب . . نعم انه امر رهيب ياديكي . ان حبي لـك يتنـاقص كلما لمحت فيك تلك الصور المضحكة التي هي ، في الواقع ، أثر هؤلاء الناس فيك ... وأنا أعلم علم اليقين أنك لست كذلـك بطبيعتك وفطرتك ، ولكنهم طبعوك بطابعهم الخاص .

لقد كان الصيف الذي قضيناه معا في كانديا صيفا مملا ثقيلا . طعام الغداء يبدأ عندنا وقت الظهيرة على الضبط ، وفكرة اضطرار والدي لانتظارنا فكرة لم تخطر أبداً ببـالي . خرجت اوديل ، يومـا ، الى المرج لتتنزه على ضفاف النهر تحمل معها كتابا فنسيت موعـد الغداء . أبصرت والدي يذرع أرض المكتبة جيئة وذهوباً ، وعدوت الى الحديقة افتش عن زوجي ، ولكني عدت ، تعباً منهوكا ، دون أن أعثر عليها . وأخيراً رأيتها مقبلة وهي هادئة باسمة ، وعلى وجهها امـارات الغبطة والسعادة ، ذلك انهـا استمتعت ببهجة الطبيعة ودفء الشمس ، وساد على المائدة صمت عميق ، هو بمثابة ملامة لها ، لا يمكن ان توجه اليهـا الا بهذه الطريقة الصامتة غير المباشرة (وهـذا اسلوب آل مارسنا) ، اما اوديل فاخذت ترمقنا بنظرات تبينت فيها أثر الحذر والمداعبة .

وكان الامر ، على النقيض ، في اسرة ماله . كنا نتناول طعـام الغـداء مرة كل اسبوع ، فكنت أنا الـذي أشعر باني موضع الدراسة والملاحظة ، وليست حلقات الطعام هناك بحفلات رسمية يلفهـا الجلال

والوقار . كان أخوا اوديل يتركان المائدة ليأتيا بقطع الخبز ، وينهض السيد ماله الى المكتبة ليتحقق من جملة كان قرأها ولم يستطع سردها بدقة . أما المحادثة فحرة طليقة ، لا تحفظ فيها ولا قيود ، وكان يسوءني أن أرى السيد ماله يخوض في موضوعات خطرة دقيقة أمام ابنته بحرية مطلقة . فانا لم أكن سعيداً أبداً بين افراد أسرة ماله ، فالوسط ليس وسطي ، ولا الجو مما يروق لي من « الاجواء » . كنت ضجراً بنفسي ، مضجراً لغيري ، لاني كنت التزم الكثير من التقيد والتحفظ ، فانكر من نفسي ذلك الصمت ، وعندئذ آخذ في الانكماش والانطواء .

وما كان هذا القلق ولا هذا الاضطراب الا شيئا سطحياً لم ينفذ الى الاعماق ، سواء كان ذلك في كانديما أو بين أسرة ماله . اذ ما زال لدي ذلك الفيض من السعادة العارمة التي كان يبعثه في نفسي مرأى اوديل تتمشى في عروقها نبضات الحياة . وما كنت بقادر ، أن أمنع نفسي من اطالة التحديق في قسمات وجهها ، كلما جلست أمامها في حفلة من حفلات العشاء . كان بياضها الناصع ينشر حولها هالة من نور ، فكأنها ماسة تشع بالاضواء تحت أشعة القمر . كانت ترتدي الثياب البيض وتحيط نفسها بالازاهير البيضاء . وكم كان ذلك على اتساق معها وائتلاف ، وياله من مزيج حبيب عجيب من الطيبة والغموض . كان يخيل اليّ أنني أعيش بالقرب من طفلة بريئة ساذجة ، ولكن ما أن تأخذ بحديث مع رجل غريب حتى ارى في عينيها انعكاساً لعاطفة اجهلها ، كأنها صدى بعيد ينبعث من عالم جياش بمصطخب الاهواء .

= ٨ =

انك ترين أنني حاولت أن اضع يدك على مفاتيح تلك الانغام التي تألف منها لحن حياتي غير الكامل . لقد رسمت لك صورة « الفارس » ثم « الماجن » ، وربما تبينت ، من خلال قصة بائع السجاد ، النداء الاول البعيد لتلك الغيرة العمياء . والآن اصطنعي معي شيئاً من السماحة والرفق ، وحاولي الاحاطة وتقدير الامور ، ولا تأخذيني باسباب الاتهام. وعليّ أن أبذل جهداً شاقاً كبيراً كي استطيع أن أسرد لك بقية القصة . ومع ذلك ، سأنهج سبيل الدقة والصدق . أنا الآن على اعتقاد مكين باني شفيت ، لذلك ساحاول التحدث عن مرضي السابق بموضوعية مجردة ، كتلك التي يتحدث بها الطبيب عند ما يجهد في وصف ما كان اعتراه من نوبات الحمى والهذيان .

هناك أمراض تبتدىء رويداً رويداً بنوبات من الاضطراب خفيفة متوالية . وهناك أمراض أخرى تأتي فجأة في أمسية من الأمسيات ، وبنوبة عنيفة من الحمى . ومرض الغيرة الذي انتابني كان من النوع الثاني الفجائي الحاد . واذا حاولت الآن ، وقد نلت الشفاء ، ان أفتش عن اسباب المرض فاني اراها عديدة مختلفة . قبل كل شيء يأتي عامل الحب الكبير والرغبة الشديدة في ان أستأثر بكل العناصر الثمينة التي يتألف منها كيان اديل : من وقت وحديث ونظرات وابتسامات. على أن هذه الرغبة لم تكن كل شيء ، اذ عند ما اكون وحيداً مع اوديل ،

في سهرة او رحلة، لا تلبث ان تتشكى من اني أهتم بكتبي وانصرف الى تدوين خواطري اكثر من اهتمامي بها وانصرافي اليها . اما عند ما يتاح لها الاتصال بالآخرين فعندئذ اشعر برغبة الاستئثار بها . ومرد هذا الشعور كبرياء كبيرة مقنعة بشيء من التواضع والحيطة . وهذا طبع من طباع اسرة والدي . انا اريد ان اسيطر على تفكير اوديل كما أسيطر على المياه والغابات، والآلات الكثيرة التي تنزلق فيها عجينة الورق البيضاء . اريد ان اطلع على ما يدور في ذلك الرأس الصغير تحت الشعر المجدل ، كما اطلع ، كل اسبوع ، ببيانات مطبوعة واضحة ، على ما تبقى من عجينة الورق وعلى معدل الانتاج اليومي .

كم اشعر بالالم الممض يبعثه في نفسي ذكر هذا العامل في نشوء الغيرة الذي اراه اصل البلاء ومبعث الداء . انه دافع قوي من حب الاطلاع العقلي الحاد . انا لا اصدق انني لم استطع فهمها وسبر اغوارها، مع ان فهم اوديل امر شاق عسير ، ويخيل الي انه ليس باستطاعة اي رجل يحبها ان يحيا معها دون ان يتألم . وكان يخيل الي ايضاً ان الغيرة ما كانت لتعرف طريقاً الى نفسي لو كانت اوديل على غير تلك الحال . فالانسان لا يولد غيوراً بالطبع ، ولكنه يحمل فحسب استعداداً لتلقي جرثومة هذا الداء الوبيل . اما اوديل فكانت تثير دوماً في نفسي كل عوامل حب الاطلاع عن طبع عفوي فيها ، لا عن ارادة وتصميم . ان مجرى الحوادث او قصة يوم هي خطط واضحة منسقة بالنسبة الي والى افراد اسرتي ، يكفي لان توصف بدقة وصدق حتى تتسلسل عناصر القصة ، وتأخذ موضعها بجانب بعضها بانسجام تام لا يفسح مجالا لشك ، او يدع فرجة لالتباس . ولكن عند ما تمر هذه الحوادث

من خلال عقل اوديل فلا تلبث ان يلفها التشويش والابهام .

وهذا لا يعني أنني أريد أن أدخل في روعك انها تخفي الحقيقة عن عمد منها وتصميم . كل ما في الامر ، انها لا تقيم وزناً ولا تحدد معنى للالفاظ والتعابير . وهي ، بعد ، ذات جمال رائع فاتن اشبه بجمال نساء الاحلام والاساطير ، فهي تقضي حياتها ، وكأنها تحيا في حلم متصل طويل . لقد أنبأتك أنها تعيش في اللحظة الحاضرة ، فهي تختلق الماضي وتخترع المستقبل كلما اضطرت الى ذلك ، ثم لا تلبث ، في الحال ، ان تنسى ما اقدمت على تلفيقه واختراعه . ثم لو أنها كانت تحاول التغرير والخداع ،لاضطرت الى التزام المطابقة بين أقوالها لتعطي لحديثها ، على الاقل ، مظهراً من مظاهر الحقيقة . انني لم أرهـا قط حاولت مثل هذا الامر ، وانها لتناقض نفسها حتى في معرض جملة واحدة . سألتها يوما ، وقد عدت من ليموزان بعد ان قضيت فيها بضعة ايام :

– كيف قضيتِ يوم الاحد الماضي ؟ أجابت :

– الاحد ؟ لا اذكر على التحقيق . . . آه ! نعم ، كنت تعبة ضجرة فتمددت على السرير طوال ذلك النهار .

وبعد خمس دقائق ، تشعب الحديث الى الموسيقا فصاحت فجأة :

– آه ! لقد نسيت ان أقول لك اني استمعت ، الاحد الماضي ، الى (فالس رافل) الذي حدثتني عنه ، وقد أثار في نفسي كل حب واعجاب ، قلت لها :

– ولكن هل تفكرين يا اوديل بما تقولين ؟ ان هذا لضرب من الجنون . . . وانك لتدركين حق الادراك أظلمت ، الاحد الماضي ، متمددة في سريرك ، امْ ذهبت للاستماع الى الموسيقا . . . وأنت تدركين ايضاً اني لا استطيع تصديق الامرين معاً ؟

– وانا لا أطلب منك أن تصدق ذلك ، فانا عند مـــا يدركني الاعياء لا أدري ما أقول ، حتى ولا أسمع ما أقول .

– والآن فتشي عن ذكرى واضحة في ذهنك : كيف قضيت نهـــار الاحد المـاضي ، هل ظللتِ ممـددة على سريرك ، أم خرجت لاستماع الموسيقا ؟

فبدأ على وجهها الارتباك ثم قالت بعد لحظة :

– لا أدري . اني أفقـد كل اتزان وتفكير عند مـا أراك تقوم بدور قاضي التحقيق .

لقد سببت لي هذه المحاورة حزناً وغماً شديدين ، وأشاعت في نفسي القلق والاضطراب ، حتى جفاني النوم ، وقضيت ساعات طوالاً ثقالاً أحاول أن أتبين ، من خلال كلماتها ،حقيقة العمل الذي شغلت فيه نهارها . أما اوديل ، فان أمثال هذه المشاهد تمحي من ذهنها بيسر غريب . لقد تركتها في الصباح ، حزينة النفس ، كئيبة ، كاسفة البال . والفيتها في المساء فرحة مرحة ، منبسطة الاسـاريرِ . كنت مصمما أن اقول لها : « اسمعي ياعزيزتي ، ان الامر بيننا خرج عن طوق الاحتمال ، وجاوز حد المعقول ، يجب ان نفكر بالانفصال ، على انى لست بطالب له ولا براغب فيه ، فعليك أن تبذلي القليل من الجهد لتتبدل حالنا ويستقيم امرنا » . ولكن اوديل تلقتني لقاء جميلا ، وكانت تترقرق على وجهها غبطة الفتيات ، ويلف جسمها ثوب جديد أنيق ، فطوقتني بذراعيها ، وحيتني بقبلة قائلة : « هل تعلم أن ميزا أخبرتني انها حجزت ثلاثة مقاعد في المسرح ؟ كم هو جميل ان نشهد رواية « بيت الدمية » . فاستسلمت صاغراً لهذا الاغراء والدلال ، وقد ألح علي الضعف والحب .

كنت على جانب كبير من الكبرياء والاعتزاز بالنفس كيلا أدع أحـداً

يتعرف الى المي ويتلمس مني موضع الجراح . ويجب أن تجهل أسرتي ذلك باي ثمن مستطاع . على ان شخصين فحسب استطاعا ، كما يبدو لي ، الاطلاع على ما كنت أعاني في هـذه السنة الأولى من الزواج . أولهما ابنة عمي رنه . وقد أدهشني ذلك لاننا ما كنا نراها الا لماماً ، وفي فترات متباعدة . فهي اختارت لنفسها حياة حرة طليقة كانت سبباً في اثارة غضب الاسرة زمناً طويلاً . انها فتاة متمردة ، تلج في العناد أكثر الاحيـان . كانت منذ طفولتها تتنكر لكثير من عادات ومواضعات آل مارسنا . ولقداعتادت أن تقضي عند صديقاتها الجدد في باريس وقتاً اخذ يزداد في الطول على مر الايام . وكانت في الحادية عشرة عندما طلبت من والدها ان يمنحها صداقها ، ويسمح لهـا بالاقامة في باريس . وظلت اشهراً بينها وبين الاسرة جفوة وخـلاف . ولكن اسرة مارسنا ، وهي التي تنظر بعين الاهتمام والتقديس الى ذلك الحب الخالد الذي يربط بين الآباء والابنـاء ، لم تكن لتطيق تحمل تلك الجفوة طويلاً وأن تمعن في الاهمال وعدم الاكتراث . فلما تأكد عمي بير من اصرار ابنته على تنفيذ رغبتها ، عاد يحاول الدخول في مفاوضات للتفاهم كي تعود الحياة الى مجاريها ، ولكن ازمات حـادة من الغضب كانت تنتاب عمي من وقت لآخر ، فيطلب الى ابنته التفكير بالزواج ، فتصر على الرفض ، ويهددها بانه لن يسمح ان تطأ قدمها ارض « شـاردوي » ثم يأخذه الحنان فيقطع عهداً لرنه بانه لن يكلمها في امر الزواج ابداً .

لقد شهدت رنه حفلة عقـد القران ، وأرسلت في ذلك اليوم سلة الزنبق لأوديل ، واني لاذكر أن هديتها هـــذه قد أدهشتني وأثارت استغرابي ، لان أهلها قدموا لنا هدية جميلة ثمينة ، فلماذا اذاً هذه الازاهير ؟ واتفق بعد شهور أن تناولت معها العشاء في بيت عمي بير ، ودعوتها

الى منزلنا . لقد كانت رقيقة لطيفة مع اوديل، وانتزعت اعجابي بما سردت من قصص اسفارها . اني لم اسمع ، منذ أن ابتعدت عن أكثر اصدقائي، حديثاً كحديثها فيه الجدة وفيه العمق . وعند ذهابها رافقتها حتى الباب، فقالت لي وقد بدا منها اعجاب صادق : « كم امرأتك جميلة رائعة ! » ثم نظرت الي بكآبة وحزن واضافت : « أسعيد أنت ؟ . . » لقد قالتها بلهجة أدركت منها أنها لا تعتقد اني سعيد .

وكانت ميزا هي الشخص الثاني الذي استطاع ان يكشف القناع عن حياتي الخاصة . فقد غدا مسلكها غريباً جداً بعد شهور من الزواج، وتراءى لي الآن انها كانت تسعى وتفضل ان تكون صديقة لي أكثر من ان تكون صديقة لأوديل . جاءت ، ذات مساء ، تعود اوديل، وكانت مريضة تتألم ، اذ اصيبت بحادثين متتابعين اصبحت بعدهما عاجزة عن الحمل وانجاب الاطفال . جلست ميزا بجانبي على الديوان وفي اسفل سرير اوديل . كنا قريبين من بعضنا يسترنا خشب السرير العالي فلا تستطيع اوديل المسلقية ان ترى سوى رأسينا . وفجأة اقتربت ميزا مني والتصقت بي ، ثم أخذت يدي بين يديها ، فاعترتني من ذلك دهشة لم تلحظها اوديل على وجهي . فابتعدت عنها ولكن على كره . وفي الليل ، عندما صحبت ميزا الى بيتها ، جذبتها الي بحركة قوية عفوية وطبعت على فمها قبلة خاطفة ناعمة فاستسلمت راضية . قلت لها :

ـ قبيح بنا هذا ، هلا فكرنا باوديل المسكينة . .

فهزت كتفيها وقالت :

ـ اوه ! اوديل !

فساءني جوابها واقلقني ، وغدوت بارداً معها ، وقلت في نفسي ان جملة « اوه ! اوديل » معناها ان اوديل غير جديرة بان يشغل المرء بها .

= ٩ =

خطبت ميزا بعد شهرين ،وعلقت اوديل على ذلك فقالت انها عاجزة عن فهم ذوق ميزا الذي قادها لاختيار بعلها . فقد رأت في جوليان كوده شخصاً عادياً . هو مهندس شاب تخرج منذ مدة من مدرسة « السنترال » ،ولم يوطد لنفسه بعد ، كما قال السيد ماله ، مركزاً اجتماعياً . وكان يبدو على ميزا انها تسعى لحبه سعياً وتكره نفسها عليه اكراها ، في حين انه كان هو محباً لها مدلهاً بها . وكان والدي يبحث منذ زمن عن مدير يتولى ادارة معمل اضافي للورق اقامه بالقرب من كانديا ، فخطر له ان يعهد بذلك الى زوج ميزا . لم ترق لي هذه الفكرة الا بمقدار . ذلك ان ثقتي قد ضعفت بميزا وتقطعت بيني وبينها الاسباب . اما اوديل ، وهي المحبة دوماً لتقديم المسرات وضروب المعروف للناس ، فانها حمدت لوالدي فكرته النبيلة وهرعت تذيع بنفسها هذا النبأ السار . قلت لها :

— ولكن هل تعلمين انك تدفعين ميزا بمحض ارادتك للحياة في ليموزان وتحرمين نفسك منها في باريس ؟ أجابت :

— اجل ، اني لأعلم هذا حق العلم ، ولكني أقوم به من أجلها وحباً بها ،دون أن أفكر بنفسي ،على انني سألقاها واجتمع اليها خلال تلك الايام الثقال التي نقضيها في ليموزان ، فتكون لي عندئذ سلوى وعزاء لنفسي واي عزاء ! وهي تستطيع ، فوق ذلك ، اذا قدمت باريس ، ان تقيم عندنا أو عند والديها . ثم من الواجب المحتم على

ذلك الشاب ان يجد لنفسه عملا ، فاذا لم نعهد اليه بهذه المهمة فسيضطر الى الذهاب بزوجه الى كرنويل ، أو الى أية مدينة أخرى سعياً للرزق .

اعجبت ميزا بالفكرة وأعجب بها زوجها ، وسرعان ما أبديا موافقتهما على الطلب برضى وقبول . وسافرت اوديل بنفسها الى كانديا ، في شتاء قاس ثقيل ، لتبحث لهما عن منزل وتوصي بهما السكان خيراً . وتلك سجية في طبع اوديل لم أشرحها لك بعد ، فهي تضحي في سبيل أصدقائها وتبذل لهم من ذات نفسها عن سلامة في الطوية ونبل في الغاية .

وكنت على يقين أن سفر ميزا سيعود بالشقاء على حياتنا الزوجية ، اذ سيفضي الى نتيجة محتمة هي القاء اوديل في محيط لا يروق لي ، وفي اجواء لا أرضى عنها أبـــداً . فما كانت اوديل لترى غضاضة ، قبل زواجنا ، بالخروج وحدها ، او بالذهاب اكثر الاحيان ، مع بعض الشبان ، الى دور اللهو وملاعب التمثيل . وكانت تقوم بنزهـات خلوية واسفار مـع أخويها ورفاقهما . ولقد كاشفتني بذلك ، قبل الزواج ، بصراحة وبراءة ونبل . وأعلمتني انه عسير عليها ترك ما الفته وما اعتادت عليه . وكانت اوديل ، في تلك الحقبة من الزمن ، اغلى شيء عندي في الوجود ، واعز ما في الحياة ، فاجبتها على صراحتها ، عن قناعة ورضى ، بانني اجـد ذلك أمراً طبيعياً لا غضاضة فيه ، وحقاً من حقوقها لاينازع ، ولن أكون ابداً عثرة في سبيل ما اعتادت عليه من صداقات .

كم من الظلم والتعسف في ان نجعل الناس مسؤولين عما قطعوه على أنفسهم من مواثيق وعهود ! انني لم اتخيل قط ، وأنا أقطع عهداً لأوديل ، ما عسى أن ينتابني من شعور ممض وأحساس أليم عندمـــا آراها تستقبل رجلاً غيري بتلك النظرة الفاتنة والابتسامة الحنون اللتين طالما اثارتا في نفسي كل حب وفتون . على أنه ربما أدهشك أنني كنت

اتألم أيضاً من أن أصدقاء اوديل كانوا أشخاصاً عاديين ،بعيدين عن أية موهبة او مزية خاصة . وكان الأولى ان يكون ذلك مدعاة لراحة الفكر واطمئنان البال ، بدلاً من ان يجرح الشعور ويحز في النفس . ان المرء عندما يحب امرأة ، كما أحببت اوديل ، يتراءى له ان كل ما يتصل بتلك المرأة ويرتبط بصورتها هو رائع جميل بما يخلع عليه الحب من المحاسن والفضائل الخيالية . فكما ان المدينة التي لقينا بها المرأة المنشودة تبدو اكثر جمالاً مما هي عليه في الواقع ، والمطعم الذي تناولنا فيه معها طعام العشاء يتراءى أيضاً أشد حسناً من سائر مطاعم الدنيا ، كذلك فان المنافس نفسه ، مع انه موضع الكره والمقاومة ، ليشارك في الافادة من ذلك الاشعاع والامتداد في العاطفة . وفوق ذلك فاننا نرغب ان نجد في ذلك الخصم المنافس خصماً قوياً جديراً بالمنافسة . نعم ان الغيرة ستستولي على نفسي ، ولكن دون ما دهشة او استغراب ، اذا أبصرت بالقرب من اوديل أرفع الناس مكانة وأبعدهم شهرة . ولكني كنت أراها محاطة بطائفة من الشباب ربما لم يكونوا ، اذا نظرنا اليهم نظرة بعيدة عن الهوى ، اشد سخفاً وادنى مقاماً من سواهم ، ولكنهم ، والحق يقال ، ليسوا جديرين بها ، وهي بعد لم تحسن الاختيار . قلت لها :

– لماذا أنت امرأة طائشة دلوع ، أنا أفهم أن تحاول المرأة ، التي حرمتها الطبيعة من سمات الجمال ووسامة التقاطيع ، اثبات سيطرتها وفرض انوثتها . أما أنت . . . فالأمر بالنسبة اليك أشبه بلعب تربحين فيه دوماً بسرعة ويسر ، انه لعب خطر قاس غير نبيل . . . ومن جهة أخرى فان ذوقك في الاختيار شديد الغرابة والشذوذ . . . انك تحرصين دوماً على رؤية جان برنيه . . . واني اتساءل ماعسى

ان يثير في نفسك من الاهتمام، فهو جهم المنظر خشن الطبع .

– انه يسليني

– ولكن كيف يستطيع تسليتك . أنت رقيقة الحواس سليمة الذوق ،ومزاحه من النوع الذي لم أسمعه منذ أن كنت في الجندية وانا لا اجرؤ على التفوه به أمامك ...

– أنت على حق بدون شك فهو جهم ،غير وسيم ولا قسيم ، وربما كان رجلًا عادياً غير موهوب (وهذا مالا اعتقده) ، ولكنني أحب أن اراه على كل حال .

– واخيراً الا تحبينه ؟

– آه ! كلا انك لمجنون ، أنا لا أود حتى أن يلمسني ، أذ أشعر بكل اشمئزاز وامتعاض .

– ربما كنت لاتحبينه ياعزيزتي، ولكن هو يحبك ،وهذا أمر جلي لا شك فيه . أنت تدفعين للتعاسة رجلين ، هو وانا ، فأية فائدة ترجين من ذلك ياترى ؟

– أنت تعتقد أن كل الناس مغرمون بي ... فأنا لست جميلة جداً...

وقد لفظت الجملة الاخيرة وابتسمت ابتسامة مغرية ساحرة فابتسمت أنا ايضاً وقبلتها قائلًا :

– واخيراً هل تخففين من رؤيته ياعزيزتي؟

فانقبضت اساريرها واجابت :

– أنا لم أقل لك هذا ابداً .

– انك لم تقوليه، ولكن أنا الذي أطلبه منك . . . فهل يزعجك ذلك ؟ اما أنا فيبعث في نفسي كل لذة ورضى ، وانت تقولين انه ليس بينكما اية رابطة أو علاقة . . .

فوجمت قليلاً كأنها تسائل نفسها ، ثم قالت وهي تبتسم ابتسامة مرتبكة :

– انني لا ادري ما أقوله ياديكي ، فأنا اعتقد ان ليس في وسعي تغيير مسلكي في الحياة . . . ان ذلك مبعث تسلية ولذة .

يالأوديل المسكينة ! لقد كانت مظاهر الصدق والبراءة بادية عليها وهي تنطق بتلك الجملة . لقد أثبت لها بمنطقي الرهيب الذي لا طائل تحته ،انه من السهل على المرء ان يغير من سلوكه .

قلت لها :

– كل ماينقصك يا أوديل انك تتقبلين نفسك على علاتها ، كأن كل مايكوّن شخصيتنا من طباع وعادات وتصرفات ، قد ركبت فينا تركيباً وفرضت علينا فرضاً . كلا ، فباستطاعة المرء ان يكون لنفسه مجموعة من الطباع والخصال ، وان يأخذها دوماً بشيء من التحوير والتبديل .

– حور طباعك أنت اذاً .

– انني على استعداد لهذه المحاولة ، ولكن حاولي أنت ايضاً وساعديني في ذلك :

– كلا لقد قلت ،واعدت القول، انني لا أستطيع ذلك ، ثم انني ليست لي أية رغبة للقيام بهذه التجربة .

كلما فكرت في ذلك الزمن البعيد ، واستعدت ذكرياته ، كنت اتساءل قائلاً :لابد ان غريزة ملهمة عميقة كانت تملي عليها ذلك السلوك ، فلو انها بدلت من نفسها، كما طلبت منها ، فهل كنت أثابر على حبها العنيف ؟ وهل كان بمقدوري تحمل وجود ذلك المخلوق الطائش الدلوع لو لم تكن تلك المشاهد تمنع بواعث الضجر والسآمة عن نفسينا . وانه لمن الاجحاف أيضاً القول انها لم تحاول قط اصلاح نفسها . فاوديل ليست بالمرأة

الشريرة الخبيثة. فهي عندما تتبين في مظاهر الألم والتعاسة ،تعتقد في قرارة نفسها انها قادرة على عمل كل شيء في سبيل هنائي ، ولكن كبرياءها وضعفها كانا أقوى من طيبتها ، فتبقى لذلك مكتوفة اليدين تتابع سيرتها الاولى .

لقد اتضح لي وضوحاً تاماً ان ما كنت ادعوه « مظهر الاغراء » انما كان مرحاً عارماً يتجاوز حد المألوف ،وعيناً أشد تألقاً وبريقاً ،ووجهاً امعن في الفتنة ، ثم فتوراً معهوداً منها ومغلوباً على امره . فهي عندما يقع رجل من نفسها موقع الرضا والقبول ، كنت أدرك ذلك قبلها . وهذا شيء ، كما ترين ، مؤلم رهيب ... وعندئذ كنت أفكر في الجملة التي قالتها لي في فلورنسا :

« اني مرهفة الحس ، رقيقة القلب ، وربما أنكرت في عند الزواج سلوكاً قد يصير الى شيء من الخفة والطيش » .

وكلما عدت بالذكرى الى ذلك العهد البائس التعس ، وما أزال أعود حتى الآن ، آلمني وحز في نفسي ان تتراءى لي اوديل ، بالرغم من طبشها وخفتها ، وفية مخلصة .انه كان من المستطاع ، بقليل من الحكمة وحسن التصرف، الاحتفاظ بودها وحبها. ولكن لم يكن من السهل ابداً ان يعرف المرء ما يأخذ مع اوديل وما يدع ، واي السبل يسلك وعن ايها يتنكب . فالحنان يضجرها ويحدث لها رد فعل ، فتقف مني فجأة موقف العداء . ثم ان أخذها بالشدة والتهديد يدفعها أيضاً لسلوك مسلك العنف والتمرد .

وهي بعد ولوع بالمغامرة ، ركابة اخطار ، فليس أبعث للسرور في نفسها من أن تستسلم في قارب الى اصطخاب الموج، واشتداد الانواء، أو ان تقود سيارة سباق في طرقات صعبة عسيرة ،او ان تقفز بجوادها فوق

حواجز عالية . كان يحوم حولها عصبة من الشبان المغامرين الجريئين . ولكن لم تكن لتفضل واحداً منهم على الآخرين . كان يتراءى لي ، كلما جلست لأستمع لأحاديثهم ، ان اللهجة التي يصطنعونها في صداقاتهم مع اوديل هي لهجة الرفقة الرياضية البريئة ، على ان لدي الآن انماطاً شتى من رسائل هؤلاء الشبان الموجهة لأوديل ، وكلها تدل على أنها تسمح لهم بان يخالط حديثهم شيء من دواعي الحب وأسبابه ، ولكنها لم تمنح نفسها لواحد منهم . جاء في أحدى هـــذه الرسائل : « كم انت غريبة الاطوار يا اوديل ، انك لتجمعين بين العفاف والطيش ، والطهر والمجون . وجاء في رسالة شاب انكليزي عاطفي متدين : « انه لمن المؤكد ايتها العزيزة اوديل انني لا أستطيع ابداً الحصول عليك في هذا العالم الفاني ، وكل ما اتمناه أن أكون بقربك في العالم الآخر الباقي » .

وها انني اطلعك الآن على أمور لم أكن على علم بها الا بعد زمن طويل ، اذ لم اكن استطيع في ذلك الوقت الاعتقاد ببراءة وطهارة تلك الحياة الحرة الطليقة .

على ان الانصاف يقتضيني ذكر امر نسيت ان افصله لك ، ذلك ان اوديل حاولت في مطلع حياتنا الزوجية اشراكي في علاقات صداقاتها ، ما قدم منها وما استجد ، ورغبت عن طيبة خاطر ان تقاسمني جميع أصدقائها . لقد التقينا بذلك الشاب الانكليزي ، الذي حدثتك عنـه ، في (بياريتس) . كنا نقضي هنـاك عطلتنا الصيفية الاولى . وكان يسلي اوديل باعطائها دروساً بالعزف على (البانجو) ، وهو آلة كانت حديثة في ذلك العهد ، كما كان يغني لها أغاني زنجية . وعندما هم بالسفر أصر على تقديم البانجو هدية لها ، وهذا ما آلمني واساءني جداً . وبعد خمسة عشر يوماً قالت لي اوديل :

ـ لقد تناولت رسالة يا ديكي بالانكليزية من ذلك الشاب (دوكلاس) فهل لك ان تقرأها لي وتعينني في الرد عليها ؟

انا لا أدري أي شيطان ركب رأسي فأوحى الي أن أقول لها بغضب ظاهر بانني لا ارغب أبداً في أن تجيبه ، وانه فتى أبله يبعث في النفس الضجر والاشمئزاز ... على أن هذا القول بعيد عن الصواب ، فدوكلاس شاب كثير التهذيب، جذاب الملامح ، وقد وقع من نفسي موقع القبول قبل زواجي . ولكنني ، اعتدت الا اصغي لحديث امرأتي دون أن أتساءل عما تخبىء في ثنايا الحديث . وكلما تبينت في مطاوي كلامها جملة غامضة رجراجة ، كونت في فكري مجموعة دقيقة من العلل والاسباب التي دعتها لأن تجعل كلامها غامضاً مبهما .

كنت أشعر بلذة أليمة وبنشوة من العذاب ، كلما اعتقدت انني اكتشفت دلائل الكذب في سياق الكلام . ان ذاكرتي ضعيفة جداً في شؤون الحياة العادية ، ولكن عندما يتعلق الأمر بأحاديث اوديل ، وقصص اوديل ، فان ذاكرتي تغدو قوية مدهشة ، اذ يثبت في ذهني جميع الدقائق والتفاصيل ، فأقابل بين أجزائها وأزنها جملة وتفصيلاً ، وقد يحدث ان اقول لاوديل : « ولكن كيف تدعين انك كنت تجربين ثوبك ؟ ان هذه هي التجربة الرابعة ، فقد ذهبت الى الخياطة الثلاثاء والخميس وهذا السبت » . فتحدق بابتسامة رضية وتجيب : « اية ذاكرة لك عجيبة شيطانية » . . . على أن كل هذا النبصر والحذر اليقظ ، كان عبثاً لاطائل تحته ، اذ ما كنت لاقدم على اي تصرف جازم وتدبير حاسم . حتى انه لم تكن لي اقل رغبة في القيام باي اجراء تجاه اوديل التي كان هدوءها ، المطلسم بالاسرار والالغاز ، لايسمح ولا يشجع على اي تصرف او تدبر . لذلك كنت تعساً كثير الاهتمام بآن واحد .

على ان السبب الذي كان يحول بيني وبين الاخذ باسباب الشدة والحزم ، كأن أمنعها مثلاً من رؤية بعض اصدقائها ، هو انني تبينت بوضوح الاخطاء المضحكة التي كانت تقودني اليها أدلتي الواهية واستنتاجاتي البائسة اليائسة . انني لأذكر لك قصة على سبيل المثال : ذلك ان اوديل ظلت تشكو صداعاً في رأسها طوال عدة أسابيع ، وتشكو ايضاً من تعب عام واعياء ، فأبدت لي رغبتها في قضاء بضعة ايام في الضواحي ، وكنت حينئذ في وضع لا أستطيع معه مغادرة باريس ، فظللت أسوف الامر وأرفض طلبها زمناً طويلاً ، ويجب ان تسجلي هنا ، انني لم الحظ على نفسي شيئاً من اثرة دفعتني الى نكران مرضها أو تجاهل مايبدو عليها من اعياء .

اخيراً وجدت ان كل الحكمة وسداد الرأي في النزول عند رغبتها والسماح لها بالذهاب الى (شانتيللي) ثم ألحق بها في مساء اليوم التالي وآخذها على حين غرة . فاذا لم اجدها وحيدة ، (وكنت على يقين انني لن اجدها وحيدة) استطيع عندها ، على الاقل ، ان اتبين امرها بوضوح ، واتخلص من ذلك القلق والابهام . واستطيع بالتالي ان اتصرف عندئذ تصرفاً حاسماً جازماً ، فأسرحها باحسان عند ما افجؤها متلبسة بالجرم . سافرت اوديل فاستأجرت سيارة في اليوم الثاني (اذ كنت اتوقع حدوث فاجعة لا أود أن يكون سائقي الخاص من شهودها) ، توجهت نحو (شانتيللي) . وفي منتصف الطريق اشرت على السائق بالعودة الى باريس ، ثم عاودتني الوساوس وعضتني عقاربه الغيرة ، وألح علي حب الاطلاع ، فطلبت الى السائق ان يعود من جديد الى (شانتيللي) ، وكنا على مسافة ثلاثة كيلو مترات من باريس . وعند ما وصلت الى الفندق سألت عن رقم الهاتف في حجرة اوديل ،

ولكن لم أجب الى سؤالي ، وتراءى لي هذا الرفض امراً طبيعياً جداً شديد الوضوح . فاطلعتهم على أوراق ووثائق تثبت أني زوج اوديل ، عندئذ قادني الخادم الى حجرتها فألفيتها وحيدة تحيط بها الكتب ، وقد كتبت كثيراً من الرسائل فقلت في نفسي : ألم يكن لديها متسع من الوقت يكفي لتهيئة هذا الاخراج ؟ ..

قالت لي بشفقة :

– كم تفتش بعيداً ! وما هذه الوساوس والظنون ؟ هل تخشى أن أكون بصحبة رجل ؟ ولكن ما عسى ان اصنع بصحبته ؟... ان الامر الذي لم تدركه بعد ادراكاً تاماً هو، أنني أود أن أكون وحيدة حتى انعم بالوحدة المطلقة الشاملة ، واذا أردت أن أكون أكثر صراحة ، فاني أرغب في الوحدة هرباً منك بوجه خاص . أنت تحملني من أمري رهقاً بما تثيره حولي من المخاوف والشكوك ، فأنا مضطرة دوماً الى مراقبة أقوالي حتى لا أقع في التناقض ، فكأنني متهمة اقف امام قاضي التحقيق . . . اما هنا فقد أمضيت يوماً هنيئاً ، رغيداً . قرأت وتأملت واستسلمت للرقاد ، وقمت بنزهات خلوية في الغابات ، وسأذهب الى القصر التاريخي لمشاهدة تصاويره الرائعة . كل هذا ، لو تعلم ، غاية في البساطة والوضوح .

ومع ذلك فقد قلت في نفسي « انها الآن في اوج قوتها بسبب نجاحها ، افلا يشجعها ذلك على استدعاء عشيقها في مرة قادمة دون خوف أو خطر ؟ » .

آه ! يا لعاشق اوديل ! كم حاولت أن أتبين ما عسى أن يكون ! لقد صغته وأبدعته من كل ما كنت اطالعه في ذهن اوديل وأحاديثها من بواعث الغموض والابهام والتعقيد . فكنت أسجل بحذر متناه عجيب

كل ما دق من الخواطر والافكار التي تصدر عنها ،لاضيفها الى شخصية ذلك الرجل المجهول . لقد قامت بيننا علائق غريبة جداً ، فقد أخذت أنفض أمامها كل ما يعلق بفكري من الخواطر والآراء ، وما أراه من وجوه النقد حول سلوكها ،مهما كان هذا النقد جارحاً قاسياً . وهي تصغي اليّ بانتباه سمح يخالطه شيء من التبرم ، ولكنها كانت تشعر ايضاً بنشوة الكبرياء والاعتزاز، لانها مبعث الاهتمام ومثار حب الاطلاع .

انها الآن ما تزال فاترة الهمة ظاهرة الاعياء تأوي الى مضجعها منذ اول الليل ، وكنت أقضي الامسيات بالقرب من سريرها . يا لها من امسيات عذاب لطاف . كنت أشرح لها كل ما أراه في تصرفاتها من المآخذ والاخطاء، فتستمع اليّ هاشة باشة ، وتأخذ يدي بيدها وتقول :

– كم تقاسي من ألم يا ديكي المسكين ! وكم تعاني من عذاب من اجل فتاة غريرة تعيسة ، فتاة شريرة حمقاء ، متكبرة طائشة ... فانا اجمع كل هذه الصفات ، أليس كذلك ؟

قلت لها :

– ما أنت أبداً بغبية حمقاء ، واذا لم تكوني على ذكاء شديد ، فان لك لحدساً ملهماً عجيباً ، وقد خصصت فوق ذلك بذوق رفيع سليم .

– ذوق سليم رفيع ... نعم لقد تبقى لي من ذلك حظ قليل . اسمع يا ديكي ، أود ان اتلو عليك اشعاراً بالانكليزية اعجبت بها كثيراً . حقاً ان لها ذوقاً فطرياً سامياً ، وحدساً مرهفاً ، ويندر ان يثير الاعجاب في نفسها شيء عادي . وقد تبينت في انتقائها للاشعار اثر الحب ، ومعرفة عميقة للعواطف والاهواء ، ورغبة في الموت والفناء . وما ازال اذكر بنوع خاص ذلك المقطع الكئيب الذي كانت تردده اكثر الاحيان : « ايها الجدول الهادىء المتعب الحزين ... » ، وكانت

تقول كم أحب هذا ... فأنا يا ديكي ذلك الجدول الهادىء المتعب .. واني لأذهب بكل هدوء نحو البحر انشد التلاشي والفناء .

قلت لها :

ـ انك لمجنونة ، فانت الحياة في اسمى معانيها ، واشد عنفوانها ، فاجابت اوديل بيأس وسخرية وقد مدت شفتيها :

ـ آه ! قد يبدو انني اظهر بهذا المظهر ، ولكنني في الواقع ،ما أنا الا جدول تعب ضجر .

وفي سهرة جميلة عذبة . قلت لها ، وانا أودعها :

ـ ومع ذلك يا اوديل ، وبالرغم من جميع اخطائك ، فاني أحبك كثيراً ، قالت :

ـ وأنا أيضاً يا ديكي .

- ١٠ -

كان والدي ،منذ زمن بعيد ، يطلب الي السفر الى السويد لقضاء بعض المصالح المتعلقة بعامل الورق . كنا نبتاع من السويد معجونة الاخشاب بواسطة العملاء . ومن المؤكد اننا نستطيع الحصول عليها بشروط حسنة وثمن بخس،اذا عمدنا الى شرائها مباشرة . ولم يكن والدي بحالة من صحة الجسم ،يستطيع معها الذهاب بنفسه ، اما أنا فكنت امانع بالسفر اذا لم تصحبني اوديل ،وهي لم تبد اقل رغبة في ذلك . وتراءت لي الشكوك والريب تكتنف هذا الرفض ، وعلمي بها ركابة اخطار ولوع بالاسفار . وعرضت عليها أن تأخذ الباخرة من الهافر اذا كانت لا تود السفر بالقطار والمرور بالمانيا والدنمرك،فالبحر، كما اعلم، يلذها ويمتعها . اجابت :

– اذهب وحدك ، ان السويد لا تستهويني فهي باردة جداً .

– كلا يا اوديل ، السويد بلاد جميلة ساحرة . . . ومناظرها رائعة فاتنة كأنها خلقت لاجلك . هناك الوحدة الشاملة ، والبحيرات الواسعة تحيط بها اشجار الصنوبر ، ثم القصور القديمة . . .

– أتعتقد انت بذلك ؟ اما انا فلست براغبة بترك باريس في مثل هذا الوقت . . . ولكن ما دام والدك يهمه امر هذه الرحلة فقم انت بها بمفردك ، وهذا ما يسهل لك رؤية غيري من النساء . ان السويديات لفاتنات ساحرات ، وهن شقر فواقع ، وهذا ما تنشده من ألوان الجمال . . .

وأخيراً أصبحت هذه الرحلة أمراً محتوماً لا مناص منه ، فاعترفت لأوديل ، بتواضع وخجل ، أن بقاءها وحدهـا في باريس يخيفني ويرعبني ، أجابت :

ـ انك امرؤ كثير الدعابة ، فانا لن أغادر المنزل ، وأعدك وعد صدق . لدي كتب كثيرة علي أن أقرأهـا ، وسأتنـاول الطعام مع والدتي ...

سافرت وأنا قلق الفكر مضطرب البال ، وكانت الايام الثلاثة الاولى شديدة الوطأة علي ، صعبة الاحتمال . وكنت اتخيل اوديل ، خلال سفري من باريس الى هامبورغ ، تستقبل في غرفتها الخاصة رجلا لم أستطع ان اتبين ملامحه ، وكان يوقع على البيان ما يروق لها من الالحان . وكنت اتخيلها راضية باسمة يتألق على محياها ذلك الاشعاع السعيد الذي كانت ، فيما مضى ، تحتفظ به لي ، والذي كنت أود أن أستأثر بـه وحدي بغيرة عمياء . أي شخص من أقاربها ، أو من معارفها دعاها لان تتخلف في باريس ؟ اهذا الغبي برنيه ؟ او ذاك الاميركي لا ندال صديق أخويها ؟ وفي « مالموى » أخرجني القطار الجديد المطلي ، وما فيه من غريب الالوان ، اخرجني عما كنت غارقاً فيه من التأملات الكئيبة السود . وفي استكهولم تلقيت رسالة من اوديل ، وما أدراك مارسائل اوديل ، أنها تكتب ، كما تكتب فتاة صغيرة غريرة ، لقد جاء في رسالتها : « اني هادئة جداً ، مطمئنة جداً ، لا أباشر أي عمل ، المطر ينهمر ، لقد اعدت قراءة « حرب وسلم » . تناولت طعام الغداء عند والدتي ، لقد قدمتْ والدتي . » وهكذا تتنابع هذه الجمل القصيرة التي لا تنطوي على شيء ، ولكنها كانت تبعث في نفسي الرضى والاطمئنان ،

ولست ادري سبباً لذلك ، ولربما كان ما تتسم بـــه رسائلها من بساطة وفراغ .

زادتني الايام التالية شعوراً بهذا الاطمئنان . والغريب انني غدوت محباً لاوديل أكثر مما كنت محباً لها وانا في باريس . اني لاتخيلها الآن متمددة ، وعليها مسحة من الوقار والاعياء ، تقرأ في كتاب بالقرب من اصيص لا يحمل الا وردة واحدة ، وبالرغم من غيرتي المجنونة ، كنت اجدني حسن التقدير ، واضح التفكير فقلت في نفسي : « لماذا لا أتألم ؟ والاجدر بي أن أكون تعساً مهموماً ، فانا لا أعلم عنها شيئاً ، فهي حرة طليقة تكتب لي ما تشاء » ثم فكرت وقدرت ان البعد الذي يساعد على تبلور الحب ، يسكن حدة الغيرة الى زمن ، لانه ينتزع من الفكر كل الاعمال الصغيرة والملاحظات الدقيقة التي اعتاد ان يبنى عليها المرء هيكل الغيرة الرهيب ، وكذلك يشيع البعد في النفس الهدوء والاطمئنان .

لقد كانت المهام المكلف بها تضطرني الى التجول في ضواحي السويد وريفها . ولقد اقمت عند اصحاب القصور من مالكي الاحراج . وقدم لي خمر السويد والكافيار والسمك الذي يعالج بالتدخين . وللنساء هناك تألق بارد مبلور ، فكانت تمر ايام طوال دون ان افكر في اوديل . وفي تصرفات اوديل .

اني لأذكر على التخصيص ليلة رائعة اذ تناولت طعام العشاء في احدى ضواحي استكهولم ، ثم اقترحت مضيفتي ان نقوم بنزهة في الحديقة . كان الهواء بارداً جداً وقد لف جسمينا فرو كثيف . وما شعرنا الا وخدم شقر طوال قد فتحوا حاجزاً حديدياً ، فاذا نحن على شاطىء بحيرة تجمد ماؤها ، واخذ يطفو على سطحها لمعان شاحب خفيف تحت اشعة شمس الليل . وكانت مرافقتي مرحة رائعة . فاخـــذت ، بعد بضع

دقائق ، تعزف لي بعض المقاطع الناعمة الشجية اغرورقت لها عيناي بالدمع ، وشعرت في تلك اللحظة بسعادة لا حد لها ، وقلت في نفسي : « ما اجمل الحياة ! وكم من السهل ان يكون المرء سعيداً ! » .

ان العودة الى باريس معناها عودة كل ما كان ينتابني من الهواجس والاوهام ، فالحوادث التي سردتها لي اوديل ، والتي شغلت بها أيام عزلتها الطويلة ، كانت حوادث عارية جوفاء اهاجت في نفسي ، كي أملأ فراغها الهائل ، كل الافتراضات الاليمة القاسية ، واليك محاورة دارت بيننا عقب عودتي :

ـ ماذا عملت خلال ذلك الوقت الطويل ؟

ـ لا شيء ، لقد استسلمت للراحة والتأمل والقراءة .

ـ وماذا قرأت ؟

ـ ألم أكتب لك أنني قرأت كتاب « حرب وسلم » .

ـ ولكنك لم تقضي خمسة عشر يوماً في اعادة قراءة قصة واحدة .

ـ كلا ، ثم قمت ببعض الاعمال فرتبت دروجي ، ونظمت كتبي ، واجبت عن رسائل قديمة ، وذهبت لمحلات الخياطة .

ـ ومن قابلت من الاشخاص ؟

ـ لم أقابل أحداً ، وكتبت لك ذلك أيضاً . أني لم أر سوى أمك وأمي وأخوتي وميزا ... ثم عزفت كثيراً من الالحان الموسيقية .

وهنا برقت أساريرها وأخذت تحدثني عن الموسيقا الاسبانية وعن « البنيز » و « كرانادوس » اللذين تعرفت الى روائعها من جديد ، وتابعت تقول :

ـ ومن ثم يجب ، يا ديكي ، أن أذهب بك لتستمع الى مقطوعة

« التلميذ الساحر .. » فهي آية من آيات الذكاء ، فقلت لها :

– ولكنها مستوحاة من قصيدة « لكوت » .

قالت : نعم ، وشاعت بوجهها نشوة غريبة .

حدقت بها طويلا اذ كيف عرفت هذه القصيدة ؟ وأنا أعلم أنها لم تقرأ شيئا لكوت ، فمن رافقها الى الحفلة الموسيقية ؟ وكأن اوديل قرأت في وجهي القلق والتساؤل ، فقـــالت : لقد كان ذلـــك مكتوباً في منهاج الحفلة .

=١١=

وفي أول ثلاثاء بعد وصولي من السويد ، تناولنا طعام العشاء عند الخالة كورا . وكانت تدعونا مرتين في الشهر . والخالة كورا ، هي الشخص الوحيد في الأسرة الذي تكن له اوديل شيئا من المودة والمحبة . وكانت خالتي كورا ترى في اوديل تحفة رائعة تزين مائدتها وتشيع فيها البهاء ، فكانت تعاملها بطيبة وحسن التفات ، وتأخذ علي ذلك الصمت العميق الذي أخذ يلازمني منذ أن تزوجت بها .

قالت لي : « انك لتبدو كئيباً مقلقاً ، فانت تسرف بالاهتمام بامرأتك . حقاً ان الازواج ثقال الظل ، لا يستطاع احتمالهم في حفلة عشاء ، الا بعد ان يمروا في طور عدم المبالاة . ان اوديل على غاية من العذوبة والظرف ، وأنت لن تعود الى سيرتك الاولى الا بعد سنتين او ثلاث . انك قادم الآن من السويد وكل أملي أن تكون ، هذه المرة ، جذابا تلفت اليك الانظار » . ولكني ، والحق يقال ، لم استطع ان اصيب نجاحاً في هذه الحفلة ، بل كان النجاح حليف شاب اعرفه حق المعرفة هو صديق لاندره هالف . التقيت به عنده . كان اندره يتحدث عنه حديثا يمتزج فيه التقدير والخوف والتهكم مزيجا فريداً . كان فرانسوا ، اسم هذا الشاب ، ضابطاً في البحرية قدم حديثاً من الشرق الاقصى . اما الذي ادخله شارع مارسو ، فهو الاميرال (كارنيه) رئيس اركان البحرية . كان فرانسوا في تلك الأمسية يصف مشاهد يابانية باسلوب شعري جي أخاذ ، لم أستطع معه أن أمنع نفسي من

الاعجاب بـــه ، رغم انني لا أشعر نحوه بأية عـــاطفة من المحبة والود . وأخذت استعيد شيئاً فشيئا ، وأنا أستمع اليه ، كل ماحدثني عنه اندره من الدقائق والتفاصيل . انه قضى زمنـا في بلاد الشرق ، ويملك منزلا صغيراً بالقرب من (طولون) قد كدس فيه التحف التي جمعها في أسفاره الكثيرة . وكنت أعلم أنـه يؤلف في الموسيقا ، وقد وضع (اوبرا) في موضوع يمس تاريخ الصين . وأعلم أيضـا أنـه معروف بالاوساط الرياضية بتسجيله أرقاما قياسية في سباق السيارات ، وانه أحد الضباط الذين ركبوا الطائرة المائية .

ان الرجل المحب أشبه بلوح حساس عـاكس لعواطف المرأة التي يحبها . اني لم أكن أشاهد اوديل اذ كانت تجلس في الطرف الآخر من المائدة في نفس الجهة التي اجلس فيها ، ولكنني كنت اعرف اية عاطفة كانت تستولي عليها في تلك البرهة والتي تنم عنها أساريرها ، واعرف باي اهتمام شديد كانت تصغي لاحاديث فرانسوا وقصصه . نعم اني لاذكر هذا العشاء بوضوح تام . كان شعوري وقتئـــذ شعور أب يحب ابنته الوحيدة ، ويراها أثمن ما في هذا الوجود ، ثم يجد نفسه وهو يجرهـــا ، تحت تأثير ظروف قـاهرة تعيسة ، الى وسط ملوث بوباء رهيب ، فيحاول أنقاذها ، واليأس يملأ جوانحه ، بكل ما اوتي من قوة . وذلك قبل ان تتسرب اليـه أسبـــاب العدوى . وكان يخيل الي انني اذا استطعت ابعاد اوديل بعد العشاء عن حلقة فرانسوا ، واذا لم يسرد لها احد التفاصيل التي أعرفهـا ، والتي تسترعي انتباههـــا ، عندئذ يمكنني أن أعود بها في منتصف الليل الى المنزل وهي نقية تمامـا من جراثيم الوباء وأعراض الداء .

وكان من حسن الاتفاق ان أوتيت هـذا الحظ الكبير دون أن

اقوم بتدبير ذكي أو محاولة بارعة ، بل كل ما في الامر ان فرانسوا قد انتزعته هيلين دوتيانج بعد الطعام مباشرة ، واختلت به في البهو الصيني الذي تحجزه الخالة كورا دوما للراغبين بالوحدة التامة من الفتيان والفتيات . كنت أتحدث في هذه الاثناء الى ايفون بريفوست حديثاً طريفاً عن فرانسوا بالطبع ، وكانت امرأة بارعة في الجمال ، وهي زوجة ضابط في البحرية ، مساعد للاميرال ، وقد قالت لي :

ـ هل يهمك أمر كروزان ؟ اني أعرفه حق المعرفة في طولون ، حيث قضيت هناك عهد الطفولة . اذ كان والدي ضابطاً كبيراً في البحرية . كان الرجال يرون فرانسوا ، فيما اذكر ، كثير التصنع ، حتى ان بعضهم كان يراه مخادعاً تعوزه الاستقامة ، لكن النساء كن يركضن وراءه ... كنت انا صغيرة جداً ، وكان يتناهى الى سمعي كل الذي به يتحدثون .

ـ أخبريني به فالامر يهمني جداً .

ـ أنا لا أذكر التفاصيل على وجه التحقيق ، ولكن أكبر الظن أنه كان على جانب كبير من التظرف وتصنع الدلال . تراه يعلق بحبال المرأة ويشغف بها شغفاً كبيراً فيشدد عليها الملاحقة ويضيق الحصار ويرهقها بالرسائل والازاهير ، وفجأة يهملها وينصرف عنها الى امرأة أخرى ، دون أن تفهم الاولى علة هذا التحول الفجائي ، أو تفهم له سبباً . وهو بعد شاب يفرض على نفسه نظاماً قاسياً جداً ، فهو يأوي دوماً الى مضجعه في الساعة العاشرة من كل مساء ، ويؤكدون أنه لا يحجم أن يلقي الى الباب بأجمل امرأة في العالم ، اذا حانت ساعة نومه المحددة ... ! أما في الحب فاسلوبه خشن جاف ، يتظاهر بعدم المبالاة ، وبأنه لا يرى في الحب الا لهواً ولعباً له ولغيره من

الناس . فقدر كم هو قادر على أن يشيع الالم والعذاب ، بمثل هذا السلوك ،في علاقاته مع النساء .

- نعم ! لقد أدركت وقدرت ، ولكن لماذا تعلق النساء بحبه ؟

- آه ! هذا شيء آخر . خذ لك مثلا ، لي صديقة أحبته واعترفت لي قائلة : « انه بلاء مخيف ولكني لم استطع ، مع ذلك ، البرء من حبه زمناً طويلا . انه معقد جداً ، قلّب ملحاح . فحيناً هو قاس جاف ، وحيناً رقيق الحواشي كثير الاستعطاف . لقد قضيت أشهراً طوالا حتى اكتشفت أنه لا يستطيع أن يقدم لي الا التعاسة والشقاء . . .

- وهل تخلصت صديقتك منه ؟

- نعم ، خلاصاً تاماً حتى انها تتحدث عنه الآن بابتسامة ساخرة .

- وهل تعتقدين أنه بدأ يلقي شباكه الآن حول هيلين دوتيانج ؟ . .

- أوه ! بكل تأكيد ، الا أن لها منافسة خطيرة تفضلها في كثير من الصفات والمزايا . ومع ذلك فامرأة مثل هيلين ، هي في ميعة العمر وذات مركز اجتماعي ، تستطيع الاحتفاظ به . ان فرانسوا يهدم حياة النساء اللواتي يتعرف اليهن وينشر فيهن الخراب . هو لا يستطيع أن يمنع نفسه عن التحدث عن علاقاته الى كل من يراه ، فعندما يقوم بمغامرة جديدة في طولون ، تسمع في اليوم الثاني حديث هذه المغامرة على كل شفة ولسان في طول المدينة وعرضها .

- يبدو أن فرانسوا هذا ، امرؤ بغيض كريه .

- آه ! كلا ، ان له لروعة وان له لسحراً . . . ولكنه كما ترى . .

ان شقاءنا ، هو من صنع أيدينا ، في اكثر الاحيان . لقد كنت حكيما عند ما قطعت عهداً على نفسي بألا أحدث اوديل عن فرانسوا ، ولكن لماذا أصبح من العسير علي جداً ان أكتم عن اوديل أمر تلك المحاورة عند ما جلسنا في السيارة بطريقنا الى المنزل ؟ أكبر الظن أن اثارة اهتمام اوديل ورؤيتها ترهف السمع لما اقول ، هو سبب من الاسباب ، لاني كنت أجد في ذلك رغبة آسرة ولذة لا تقاوم ، وربما كان السبب الاخر اعتقادي ، وهذا وهم جنوني ، ان انتقاد فرانسوا انتقاداً مراً قاسياً ، من شأنه أن يصرف اوديل عنه ، ويبعدها ابعاداً لا لقاء بعده .

سألتني اوديل عندما لزمت الصمت :

ـ أهو مؤلف موسيقي تقول ؟

لقد استدعيت الشيطان برعونة وطيش ، وليس باستطاعتي طرده ، فاصبح لزاماً علي قضاء ما تبقى من السهرة في سرد كل ما أعرفه عن فرانسوا وعن طراز حياته الغريب الشاذ .

قالت اوديل بعدم اكتراث :

ـ انه لمن الطريف اذاً التعرف عليه ، أفلا تدعوه مرة لزيارتنا ؟ .

ـ بكل طيبة خاطر ، هذا اذا لقيته مرة أخرى ، لان عليه ان يعود لطولون ، ثم هل أعجبك ؟

ـ كلا ، فانا لا تروق لي تلك النظرة التي ينظر بها الى النساء وكأنهن اجسام شفافة .

وبعد خمسة عشر يوماً ، اجتمعت به عند الخالة كورا وسألته هل ترك سلك البحرية ؟ فاجابني بلهجته الجافة المعتادة :

- كلا ، أنني اقضي ستة أشهر متمرناً في مصلحة الدراسات البحرية .

وفي هذه المرة اجتمع الى اوديل وتحدثا حديثاً طويلا ، واني لا أزال اراهما جالسين على الاريكة وقد مال كل نحو الآخر قليلا الى الامام ، يتحدثان بغبطة واهتمام .

وكانت اوديل في العودة صامتة فقلت لها :

- والان ماذا ترين في بحرينا ؟

- انه جدير بالاهتمام . وتابعت صمتها حتى بلغنا المنزل .

— ١٢ —

وتعاقبت أيام الثلاثاء ، وكان فرانسوا في كثير منها ينفرد باوديل في الجو الصيني بعد أن يتركا المائدة . وقد نالني من ذلك ، ولاشك، ألم محض كبير . ولكن ما كنت أرى أن يطلع أحد على ما كنت أشعر به من ألم وموجدة . لم أستطع أن أمنع نفسي عن التحدث عن فرانسوا مع كثير من النساء رجاء ان أسمع منهن انتقاصاً بحقه لأعيده على مسمع من اوديل . ولكن الامر كان على النقيض فجميعهن على وجه التقريب ، معجبات به مفتونات ، حتى ان هيلين دوتيانج ، العاقلة المفكرة ، التي كانت تدعوها اوديل « منيرفا » لما تتمتع به من عقل راجح وحكمة ، حتى هيلين نفسها ، قالت لي :

— اؤكد لك انه فاتن شديد الاغراء .

— ولكن ما هي مظاهر هذه الفتنة ؟ وما هو نوع ذلك الاغراء ، لقد حاولت عبثاً الاصغاء الى أحاديثه ، وكان يخيل الي انه حديث معاد ، ونغمة مكررة مملولة ، فهو ابداً يتكلم عن الهند الصينية ، عن شعوب وقبائل قديمة ، عن الحياة العاطفية العنيفة ... واعتقدت في المرة الاولى ان هذا شيء شيق طريف يثير الاعجاب ، ثم ما لبثت ان تبينت أنه أشبه بالمشاهد المسرحية المعادة ، لا تستحق ان ترى الا مرة واحدة .

— نعم ، انك لتقول الحق ولو الى حد يسير ، ولكن لا ننكر انه يسرد قصصاً جميلة بارعة ، والنساء اطفال كبار يحببن كل غريب

عجيب . ثم ان أفق الحياة الراهنة محدود جداً أمامهن ،فيرغبن دوما في التخلص من هذا الافق المحدود . تصور اي ملل يبعثه انهماك المرأة الدائم في شؤون البيت والمطبخ والضيوف والاطفال . والرجل الباريسي ، سواء كان متزوجاً او عزباً ، يساهم ، هو أيضاً ، في هذه الحياة الآلية الرتيبة ، ولا يمكنه ان يحمل الينا ، نحن معشر النساء ، شيئاً نضراً جديداً . ولكن بحاراً ككروزان يتراءى لنا كدنيا مفعمة بكل غريب جديد .

- ولكن ألا تجدين أن مسلكه هذا يمت الى رومانتيكية زائفة لا تطاق ؟ انك تمدحين ما يقص من احسن القصص . . . اما انا فان الرعب ليداخلني من سرد هذه القصص والمغامرات التي هي ، حتما ، من تلفيقه وصنع خياله .

- واي قصص تعني ؟

- اوه ! انت تعلمين قصة تلك الانكليزية في هونولولو التي القت بنفسها في لجة الماء حسرة على بعده وفراقه . وقصة تلك الروسية التي ارسلت له صورتها تحيط بها خصل من شعرها . فانا أجد كل ذلك بعيداً عن المألوف يمجه الذوق ، وتنبو عنه الاسماع .

- لا علم لي بهذه القصص ... فمن حدثك عنها ؟ أهي اوديل ؟

- كلا ، كل الناس يتحدثون عنها فهي على كل شفة ولسان ... ثم لماذا تريدين ان تخصي اوديل بذلك ؟... تكلمي باخلاص وصدق افلا تجدين مسلكه هذا باعثاً على الاستياء والاشمئزاز ؟

- نعم ، اذا أنت أردت ... ومع ذلك فان له عينين ساحرتين لا يمكن نسيانهما ابداً . ثم ان ما قلته عنه ينافي الحقيقة والواقع . انك لتنظر اليه عن بعد ومن خلال الاساطير ، ولكن تحدث اليه

فستجده من البساطة على حد كبير .

وكان الاميرال كارنيه كثيراً ما يشاهد في شارع مـــارسو يحضر حفلات الثلاثاء ، وقد حاولت في أمسية الانفراد به وأخـــذت اسأله عن فرانسوا فقال :

ـ آه ! انه بحار حقاً . . . وانه أحد كبار ضباطنا في المستقبل .

وقررت من جهتي أن أقاوم ما أشعر بـه من نفور نحو فرانسوا كروزان ، فاكثر من رؤيته ، وأحاول الحكم عليه بكل تجرد واخلاص ، وكان هذا أمراً علي شاقاً عسيراً . كان يتراءى لي ، عندما عرفته عند هالف ، أقل نفوراً وازدراء . لكنني عدت فلمست هـذا الشعور المؤلم في أول مساء من لقائنا الجديد . وقيل لي أيضاً انـه يبذل جهـداً كبيراً ، منـذ أيام ، ليقاوم ذلـــك الضجر الذي يوحيه اليه صمتي العدائي الكئيب .

واعتقدت ، وربما كنت محقاً في اعتقادي ، انني أصبحت الآن بسبب اوديل ، موضع رعايته واهتمامه ، ولكن لم يكن هـذا ليقربني منه ، بل كان ، على النقيض ، سبباً في نفوري وابتعادي عنه .

دعوته مرة الى تناول العشاء ، وحاولت أن أراه جديراً بالاهتمام فما استطعت الى ذلك سبيلا . نعم انه على جانب من الذكاء وانقاد الفكر ، ولكنه كان ، في الواقع ، خجولا . وكان يكافح مظاهر هذه الحالة في نفسه باصطناع الاساليب التي تصطبغ بصبغة من السلطة القوية والجرأة الصارخة ، مما يبعث في النفس كل استيـاء . وتراءى لي ايضاً انـه أقل قدراً واخف وزناً من صديقيّ القديمين اندره وبرتران . ولم استطع أن أعلل كيف ان اوديل ، التي ابعدتها بازدراء واستخفاف ، تبدي الآن ذلك الاهتمام المتصل الشديد لاحاديث فرانسوا كروزان . فهي حين

تراه تتغير ملامحها وتبدو أكثر جمالا ، واشد فتنة من المعتاد . كنا يوما نتحدث ، انا وفرانسوا ، عن الحب بمحضر منها . قلت ان الاخلاص هو الشيء الوحيد الذي يستطيع ان يجعل من الحب عاطفة سامية غاية في الجمال والصفاء ، الاخلاص حتى الموت رغم كل العقبات والصعاب . عندئذ تبادلت اوديل مع فرانسوا نظرة غريبة ، ثم أجاب فرانسوا باسلوبه المنمق المصطنع الذي يخلع على افكاره مسحة من التجريد الاجوف الرنان ، فقال :

– انا لا أفهم أبداً ما هي ضرورة الاخلاص في الحب . على الانسان أن يعيش في الحاضر ، عليه ان يبذل قصارى جهده وغاية اهتمامه لينتزع من اللحظة الراهنة كل ما يمكن ان تحويه من لذات عنيفة . وسبيل ذلك ثلاث وسائل : السيطرة والخطر والرغبة . فلماذا تريد اذاً ان تستبقي بالاخلاص خيال لذات عابرات !

– السبب ان ليس هناك حياة عاطفية عنيفة الا فيما هو متصل دائم وصعب المنال . الا تذكر ذلك المقطع من اعترافات روسو حيث يقول : « ان لمس ثوب امرأة فاضلة ليوحي من اللذات أضعاف مايبعثه امتلاك امرأة رخيصة سهلة المنال . » فقال فرانسوا :

– ان روسو رجل مريض . وقالت اوديل :

– ان قلبي ليمتلىء رعباً من روسو .

وكان فرانسوا ، في مرات كثيرة ، يثير اهتمامي ويقع من نفسي موقع الاعجاب عندما يأخذ في الحديث عن مهنته في سلك البحرية ، حتى انني كنت أنسى ، خلال بضع دقائق ، ما أكن له من كره وبغضاء . أخذ مرة ، بعد تناول العشاء ، يذرع الغرفة جيئة وذهوباً بخطاً رشيقة ، وطفق يقول :

ـ اتعلم يا مارسنا كيف قضيتُ سهرة البـــارحة ؟ قضيتها بدراسة معارك نلسون .

وشعرت ، بالرغم مني ، بتلك الحفقة الحلوة من السرور التي كنت أشعر بها عند لقاء اندره هالف او برتران . ثم أجبته .

ـ أحق ما تقول ؟ وهل قمت بهذه الدراسة بدافع لذة خاصة ، أم سعياً وراء فائدة معينة ؟ فمن المؤكد الواضح أن الاساليب والخطط البحرية قد تناولها شيء من التغيير كبير .

ـ يجب الا تعتقد بذلك أبداً ، فالمؤهلات والمواهب التي تحقق النصر في هذا العصر ، سواء في البر او البحر ، هي نفس المؤهلات والمواهب زمن قيصر او انيبال . خذ مثلا موقعة ابي قير ... فما الذي حقق النصر للانكليز ؟... يأتي في المقدمة عناد نلسون واصراره ، فهو لم يتخل أبداً عن البحث عن الاسطول الفرنسي واللحاق به . ويأتي بعد ذلك الحزم والسرعة في اخذ القرار وتنفيذه بعد ان عثر على الاسطول . وأخيراً مواتاة الرياح . فهل تعتقد ان هـذه الصفـات من عزم وحزم وحزم قد فقدت قيمتها واعتبارها ، بمجرد ان مراكب البحر قد زادت اتساعاً واتقاناً ؟

ثم تناول ورقـة من منضدتي ، وأخرج قلماً من جيبه ، وشرع يرسم المعركة . كانت اوديل تجلس الى المنضدة نفسهـا مسندة ذقنها على كفيها المشتبكتين ، تحدق النظر في فرانسوا بامعان واعجاب شديدين ، وتخالسني ، من وقت لآخر ، نظرة خاطفة ترسلها من تحت حاجبيهـــا الطويلين العاليين . قلت لنفسي : « هل كانت تصغي الي بمثل هـذا الاصغاء لو كنت انا الذي اشرح لها معركة من المعارك ؟ ».

وشيء آخر كان يؤلمني في زيارات فرانسوا المتقطعة ، ذلك ان

اوديل كانت تظهر بمظهر جذاب أخاذ بما تسرد من قصص طريفة ، وبما تبدي من أفكار كنت قد شرحتها أمامها في عهد الخطبة . كنت أحسب أنها نسيت تلك الاحاديث والآراء نسياناً تاماً ، لأنها لم تحدثني بها أبداً . وفجأة أرى أن أفكاري تبعث من جديد ، وتخرج الى النور لتبهر رجلا آخر بما تحوي من وضوح تفكير الرجل يذيعه عقل امرأة . كنت أفكر ، وأنا استمع اليها ، بان هذا ما حدث بالضبط مع دونيز اوبري ، وهو ما يحدث اغلب الاحيان . فنحن عندما نبذل الجهد في تكوين نفس من النفوس ، انما نصرف هذا الجهد لمصلحة شخص آخر .

والغريب في الامر ان بدء علاقتها الحقيقية قد صادف في نفسي طوراً قصيراً من الاطمئنان النسبي . ففرانسوا واوديل ، اللذان ما كانا ليتورعا ، منذ أسابيع ، عن الاخذ باسباب المرح واللذة على مرأى مني ومن جميع الاصدقاء ، قد التزما الان خطة حكيمة وسلكا مسلكاً رشداً . أصبحا لا يظهران معاً الا لماما ، ولا يجلسان في حلقة واحدة عند ما يضمها جمع أو ناد . وهي تتحاشى ، ما استطاعت ، التحدث عنه . واذا ذكرت امرأة أخرى ، بدافع الفضول ، اسم فرانسوا على مسمع منها ، فانها تجيب عن ذلك بكل هدوء وعدم اكتراث ، وهذا ما أثار دهشتي طوال بضعة أسابيع . وكان لي ، ولسوء الحظ ، حدس شيطاني والهام غريب عند ما يتعلق الامر باوديل ، على حد تعبير اوديل نفسها . فشرعت أحلل وأقلب ، وأفكر وأقدر ، لأكشف القناع عما يخفي هذا المسلك الجديد . قلت في نفسي : « السبب أنهما يتقابلان ، ولاشك ، بحرية وعلى غير علم مني ، فلا يبقى لديهما شيء يقولانه عند المساء . فهما يبتعدان عن بعضهما ويتظاهران بان الحديث لا يدور بينهما الا بمشقة وعسر » .

واستحكمت في عادة تحليل ووزن كل ما كانت تصطنع اوديل من ألوان الحديث ، وكان يرافق هذه العادة بعد نظر غريب والهام عجيب . كنت سرعان ما أكتشف فرانسوا مختبئاً بين تضاعيف الجمل وسياق الحديث . لقد أخذت اوديل ، منذ اسبوع ، تتحدث عن اناتول فرانس حديثاً طلياً طريفاً . قلت لها ذات مساء ، ونحن خارجان من حفلة عشاء عند « آل تيانج » ، وكانت ، وهي المتواضعة الصموت ، قد انتزعت اعجاب اصدقائنا بما سردته بجماسة غريبة عن آراء فرانس السياسية ، قلت لها :

ـ كم كنتِ رائعة يا عزيزتي ! انك لم تحدثيني أبداً عن هذا ، فكيف انتهى كل ذلك الى علمك ؟ أجابت وهي فرحة قلقة معاً :

ـ أأنا كنت رائعة محط الانظار ؟ اني لم ألحظ هذا أبداً .

ـ لا تدافعي عن نفسك يا اوديل ، فليس في الامر جريمة أو عار ، الكل رآك متقدة الذهن بارعة الذكاء ... فمن علمك كل ذلك ؟

ـ أنا لا أذكر على وجه التحقيق ، وأكبر الظن انني اجتمعت في حفلة من حفلات الشاي بشخص يعرف فرانس معرفة واسعة .

ـ ولكن من هو ذلك الشخص ؟

ـ اوه ! لقد نسيت ... اذ لم أكن لأعلق على ذلك كبير اهتمام . يا لاوديل المسكينة ! كم كانت خرقاء رعناء . انها تود الاحتفاظ بمظهرها الطبيعي ولهجتها المعتادة كيلا تبوح بشيء ينم عن حقيقة أمرها . وكانت ، مع ذلك ، تفضح نفسها في كل جملة تقولها . كانت حذرة متحفظة ، فلا تأتي باشارة مباشرة ، ولا تتلفظ باسم فرانسوا . لكنها كانت في غفلة عن تلك المظاهر الخفية التي كانت ، بالرغم منها ، تعلن اسم فرانسوا في تضاعيف حديثها وتذيعه للملأ أجمع .

وكان بالنسبة الي ، انا الذي اعرف تماماً ذوق اوديل وآراءها ومعتقداتها ، كان من السهل جداً ، ومن المؤلم أيضاً ، أن ألحظ بوضوح ما طرأ عليها من تبدل سريع . فهي ، وان لم تكن متدينة متزمتة ، كانت مؤمنة تذهب للصلاة أيام الاحاد . أما الان فتقول : « انا اغريقية من القرن الرابع قبل الميلاد ، وثنية أدين بدين الاغريق » انها جملة استطيع بكل تأكيد جازم ، أن أردها الى فرانسوا حتى لكأنها تحمل توقيعه الخاص . وكانت تردد أيضاً « ما هو كنه هذه الحياة ؟ ان اربعين عاماً من العمر التعيس قضيناها وكأننا نتمرغ في الوحول ، ثم تريد بعد ذلك ان تضيع دقيقة واحدة في ضجر لاطائل تحته ؟ » وتلك فلسفة أعرفها من فرانسوا ، وهي ، مع ذلك ، فلسفة عادية مبتذلة . وكنت احتاج ، بعض الاحيان ، لشيء من التفكير واعمال الروية لاتبين العلاقة بين اعمالها الظاهرية المفاجئة ، وبين حقيقة ما يجول في خاطرها من افكار . كنت مرة اقرأ في صحيفة فلحظت اوديل خبراً بعنوان « حريق في غابات الجنوب » ، وعندها اسرعت بانتزاع الصحيفة من يدي ، وكنت أعلم أن مطالعة الصحف لا تروقها أبداً . قلت لها :

– هل تهتمين بحرائق الغابات يا اوديل ؟

فاعادت الصحيفة واجابت :

– كلا ، ولكن اريد معرفة مكان الحريق .

وعندئذ تذكرت تلك الدار الصغيرة التي يملكها فرنسوا والقائمة بين اشجار الصنوبر في بوفالون .

ارأيت الطفل عندما يود اخفاء شيء عن أترابه كيف يضعه على السجادة وسط الغرفة ، وعلى مرأى من الجميع ، فيبعث فينا بذلك ابتسامة

الشفقة والحنو ؟ كذلك كانت اوديل تبعث في النفس كل اشفاق مؤثر ، بما تأخذ نفسها من أسباب الحيطة الساذجة والحذر الصبياني . فعندما تروي خبراً عن أحد أصدقائها أو عن أحد أقاربنا ، كانت تذكر دوماً اسم الذي تروي الخبر عنه . اما عندما يتعلق الامر بفرنسوا ، فكانت تروي ذلك بصيغة المجهول كأن تقول : « قيل لي . . . حدثني شخص ... » وكثيراً ما كانت تبدي اطلاعاً واسعاً مدهشاً في شؤون البحرية . كانت على علم من ان سيكون لنا في القريب نوع من طراد سريع ، او غواصة من طراز جديد ، أو ان الاسطول البريطاني سيصل الى طولون ، فيدهش السامعون لذلك ويقولون :

ـ ان هذا لم تشر اليه الصحف أبداً .

فيستولي على اوديل القلق والذعر ، وتشعر انها اسرفت في الحديث واشتطت حيث يجب ان تكون حذرة يقظة ، وتحاول الانكماش ، وتردف قائلة :

ـ آه ! حقاً اني لا أعلم ... وربما كان ما قلته غير صحيح .

ولكن ما كانت تقوله كان صحيحاً على الدوام .

ان حديث اوديل قد أصبح نسخة طبق الاصل عن حديث فرانسوا . وان الذي وصفته لهيلين دوتيانج انه شيء مكرر ونغمة مملولة ، أخذت اوديل الآن تعيده بدورها ، فهي تتحدث عن الحياة العاطفية العنيفة ، وعن لذات المغامرة ، وعن الهند الصينية أيضاً . على ان آراء فرانسوا ونظرياته الجافة القاسية كانت تفقد ، عندما تجتاز ذهن اوديل ، معالمها الواضحة . وكنت أتتبع هذه الآراء بين خلايا ذهنها تتبعاً دقيقاً ، فأجدها قد اضاعت اطارها الاصيل اشبه بنهر مر في بحيرة كبيرة ثم ما لبث ان أضاع حدود شطآنه ، وغدا كظل مبهم غمرته صغار الامواج .

- ١٣ -

واخيراً وضح الأمر عندي ولم يبق للشك سبيل . فالشبهات وافية كافية ، والأدلة بينة قاطعة . أما انهما يتقابلان سراً فشيء لاريب فيه ، اما انها اصبحت خليلة له فأمر لا استطيع الجزم بـه ولا البت فيه . ومع ذلك لم استطع مكاشفتها بما تجمع لدي من رأي فيها . وما الفائدة من ذلك ؟ اني مهما سردت لهـا من شواهد دقيقة وسقت من أدلة لا تقبل الجدل ، مما قد انطبع في ذاكرتي العجيبة ، فانها لسوف تنفجر ضاحكة ، ثم ترمقني بنظرات الحنو والاشفاق وتقول : « انك لتسليني ! » وما عسى أن أجيب ؟ هل أنا قادر على أخذها بأسباب التهديد والوعيد ؟ وهل انا راغب حقاً في فصم علاقتنا الزوجية ؟ وفوق كل ذلك ، ورغم هذه المظاهر الواضحة البادية ، أليس من الجائز أن أكون مخطئاً في الحكم عليها ؟ ولكن كنت اعلم علم اليقين ، عندما اقف من نفسي موقف صراحة وصدق ، انني لم أكن مخطئاً قط ، انما كانت الحياة في نظري عندئذ جحيماً لايطاق ، فتلمست العزاء ، لبضعة ايام ، في هـذا الاحتمال الخاطىء والوهم المزعوم .

كنت تعيساً جـداً ، فلقد غدا سلوك اوديل وكتمان افكارهـا كابوساً ملحاً يلازمني دوماً . فما كنت لأباشر عملاً في مكتبي على وجه التقريب ، بل كنت أقضي أياما بكاملها آخذاً رأسي بين يدي مستسلماً للتأملات والاحلام . وما كان النوم ليمس اجفاني الا في الثالثة او الرابعة بعـد انتصاف الليل ، وبعد أن أكون قـد أدرت في فكري

مسائل مغلقة عويصة لا أهتدي لحلها ، ولا أستطيع لها تأويلاً . وعندما أقبل الصيف كانت مدة تمرين فرانسوا قد انتهت فعاد الى طولون ، وكان مظهر اوديل لاينم أبداً عن شيء من الكآبة أو الحزن ، وهذا مابعث في نفسي قليلاً من الرضى والاطمئنان . وكنت أجهل أكان يواسلها ام لا ، وعلى كل ، فلم تقع يدي على اية رسالة ، ثم قليلاً ما كنت الحظ القلق يشيع في حديث اوديل .

كان من المتعذر علي أن أنال اجازتي قبل حلول شهر آب ، اذ كان والدي مضطراً الى الذهاب الى فيشي خلال شهر تموز بقصد الاستشفاء . لذلك رأيت من المناسب ان تقضي اوديل هذا الشهر في قصر شوان في تروفيل ، لانها كانت طوال فصل الشتاء متألمة متعبة ، وقبل ان يحين موعد الذهاب بخمسة عشر يوماً قالت لي :

ـ اذا كنت غير ملح علي بالذهاب ، فاني لست براغبة في السفر الى تروفيل للاقامة في قصر الخالة كورا ، بل أرجح على ذلك شاطئاً منعزلا هادئاً . ان نفسي لتمتلىء رعباً من شاطيء نورماندیا حيث الضجة والازدحام والخلق ، وخاصة في ذلك القصر ..

ـ ماذا تقولين يا اوديل ؟ أتخشين أنت العالم الصخاب ، والخلق الكثير ؟ انت التي كنت تصبين علي الملامة والتأنيب صباً ، لاني لم أكن أحب العالم والاندماج فيه .

ـ ان الامر منوط بحالة المرء النفسية . ونفسي الآن تتطلب الوحدة والهدوء ... افلا تعتقد أنني استطيع العثور على ناحية منعزلة في شواطىء بريتانيا ؟ فانا اجهل تلك الربوع ويقال انها رائعة جميلة .

ـ نعم انها جميلة جداً ياعزيزتي ، ولكنها بعيدة جداً ، وعسير علي ان أوافيك كل اسبوع لاقضي عطلة الاحد ، كما هو الامر في تروفيل .

ومن ثم فان القصر هناك سيكون تحت امرتك لا ينازعك فيه منازع، لان الحالة كورا لن تكون في قصرها قبل أول آب ... فلماذا بدلت رأيك يا ترى ؟

وظلت اوديل مع ذلك مصرة على الذهاب الى بريتانيا ، تعاود الطلب بين الحين والحين ، برفق ولباقة ، حتى توصلت اخيراً ان تنتزع مني كلمة القبول . أما أنا فقد أغلق علي الأمر ، ولم أجد لتصرفها علة او سبباً . كنت أتوقع أن تطلب الذهاب الى جهة قريبة من طولون ، فهذا شيء سهل ومعقول ، لأن صيف تلك السنة كان شديد الوطأة ، بشعاً ثقيلاً ، وشاع التذمر بين الناس من شدة الرطوبة في نورماندیا . لقد حزنت لفراقها وتألمت ، ومع ذلك فقد كنت أشعر أيضاً بشيء من الغبطة لانها سلكت طريقاً بعيدة عن ملابسات الشكوك ومواضع الشبهات . رافقتها الى المحطة كئيباً كاسف البال ، وكانت تبدو ، في ذلك النهار ، على شيء كثير من اللباقة والحنو ، بادلتني قبلة على رصيف المحطة وقالت :

– لا تدع ، يا ديكي ، للضجر سبيلاً الى نفسك ، بل خذ باسباب اللهو والسرور ... واخرج الى النزهة مع ميزا اذا شئت فستكون راضية بذلك مغتبطة .

– ولكن ميزا في كانديا .

– ستأتي الى باريس لتقضي عند اهلها الاسبوع القادم باجمعه .

– انا لا أشعر بأية رغبة للخروج من المنزل عندما لا تكونين هنا ، بل أجد لذة في البقاء مستسلماً لتأملاتي الحزينة وافكاري السوداء .

فدغدغت خدي بيد رفيقة كالأم الحنون وقالت :

– ما ينبغي ان تأخذ نفسك بكل هذه الشدة ، وتحملها من أمرها

رهقاً ، فانا غير جديرة بكل هذه العناية اذ لست شيئاً هاماً .. أنت تنظر الى الحياة ، يا ديكي ، نظرة صرامة وجد اكثر مما تستحق ، فما الحياة في الواقع الا لهو ولعب .

ـ ولكنها ليست لعباً فرحاً مرحاً على كل حال .

وهنا سترت وجهها ، هي ايضاً ، مسحة من الكآبة وتابعت تقول :

ـ نعم ان الحياة ليست بلعب فرح ، وهي صعبة قاسية بنوع خاص . ان المرء ليقوم باعمال ليست له رغبة في القيام بها ، وليس له الخيار فيها ... والآن أرى أن موعد السفر قد دنا ، وحان الركوب .. فالى اللقاء يا ديكي ... هل أنت على ما يرام ؟

وقبلتني قبلة أخرى ، وارسلت الي ، وهي تهم بالركوب ، ابتسامة من ابتساماتها المشعة الوضاءة ، ثم ما لبثت ان توارت عن الانظار .

- ١٤ -

كان اليوم التالي لسفرها يوم ثلاثاء، فتناولت طعام العشاء عند الخالة كورا. هي تستقبل ضيوفها حتى شهر آب من كل سنة، ولكن عدد الضيوف يتناقص خلال اشهر الصيف. ووجدتني أجلس جنب الاميرال كارنيه. كان يحدثني عن الطقس وعن العاصفة التي اجتاحت باريس ظهيرة ذلك اليوم، ثم قال لي :

- اسمع، لقد وجهت امراً لصديقك فرانسوا ... فهو يرغب في دراسة شواطىء برتانيا، فهيأت له مهمة موقتة في برست.

- في برست ؟

لقد رأيت الكؤوس والازهار تدور أمامي، وخيل الي انه سيغمى علي، ولكن للغريزة الاجتماعية سلطاناً قوياً على نفوسنا، حتى اننا فيما أعتقد، نتحمل آلاماً مميتة لكي نتظاهر بالهدوء، ونصطنع عدم المبالاة، قلت للاميرال :

- آه ! لاعلم لي بذلك ... وهل مر على ذهابه وقت طويل ؟

- بضعة أيام.

وأخذت معه في حديث مشعب، طويل تناولنا فيه ميناء برست واهميته الكبرى كقاعدة بحرية، وتحدثنا عن ابنية الميناء القديمة. كان تفكيري يضطرب متنقلاً في اتجاهين مختلفين جداً، فمن جهة ظاهرة كنت اصطنع هذه الجمل المعقولة المبتذلة لأدخل في خلد الاميرال انني هادىء البال رضي النفس، سعيد بهذه الأمسية الندية النضرة، وبهذه البقايا من

السحب العابرة تتسابق في حواشي الافق . ومن جهة اخرى ، كان صوت خافت مغلف يردد في اعماق نفسي هامساً : « هـذا هو السبب اذاً في الحاحها للذهاب الى بريتانيا » كنت اتخيلها تتنزه الى جانبه في شوارع برست ، وقد استندت الى ذراعه يترقرق على محياها فيض من الغبطة الصارخة التي طالما عرفتها فيها واحببتها منها . ولربما بقيت عنده ذات مساء . فالشـــاطىء الذي اختارته غير بعيد من برست . وكنت أتخيل أيضاً ان فرانسوا هو الذي يوافيها الى حيث تقيم ، فيتنزهان بين الصخور ، وكنت اعلم حق العلم كم تستطيع اوديل ، في ساعة كهذه ، ان تجعل الطبيعة اكثر جمالا وبهاء . والامر الذي اثار في كل دهشة واستغراب انني ، مع ما يحز في نفسي من ألم ، كنت أشعر بلذة فكرية ونشوة عقلية ، اذ وجدت الآن الحل الواضح والتفسير المعقول لتلك الاسئلة المعقدة العديدة التي كنت اسائل بهـا نفسي منذ ان ارتبت في أمر اوديل عندما الحت بالذهاب الى بريتانيا : « ذلك ان فرانسوا كان هناك » . وكان قلبي بهذا الاستكشاف موجعاً متألماً ، اما عقلي فكان مطمئناً راضياً .

وعندما عـدت الى منزلي ، قضيت ليلاً ثقيلاً طويلاً ، اتساءل فيما انا صانع . هل اركب القطار الى بريتانيا ؟ ولكني سأجد اوديل ، ولا شك ، قابعة في بقعة صغيرة منعزلة ، وضاءة المحيا هادئة البال ، فأبدو عندئذ اخرق طائشاً . ومع ذلك فتظل الشكوك تساورني وسأعتقد في الحال بان فرانسوا لابد انه أتى ثم مالبث ان عاد ، وهذا هو الواقع المعقـول . ولأول مرة قلت في نفسي ، « أيجب اذاً ترك أوديل ؟ فما دام طبعـانا مختلفين لدرجة لاتستطيع معهـا ان تبعث في نفسي الثقة والاطمئنان ، ومادامت لاتريد ، ولن تريد أبداً ، بذل أي جهد

لتعهد شؤون حياتنا الزوجية ، أفليس من الخير ، لي ولها ، ان نفترق ويعيش كل منا على انفراد ؟ ومما يزيد الامر سهولة ويسراً ان ليس لنا أولاد ، فالطلاق هين في مثل هذه الحال . ومرت بخاطري حينئذ ، بوضوح وجلاء ، تلك الصور الهنيئة من السعادة المتواضعة الراهنة الوائقة التي كنت أنعم بها قبل أن أتعرف على اوديل وتتصل بيننا الاسباب . أنا لا أنكر ان حياتي في ذلك العهد لم تكن على شيء كبير من القوة والعظمة ، لكنها كانت ، على الاقل ، حياة طبيعية حلوة مستقرة . وكنت اعلم أيضاً ان مشروع الطلاق شيء لا أقوى عليه ، ولا أرغب في تحقيقه . لان فكرة الحياة بدون اوديل ماتزال عندي فكرة غامضة مبهمة .

كنت أتقلب على فراشي أحاول اقتناص النوم الذي شرد عن جفوني ، ولكن دون ما طائل او جدوى . فالفكر مشغول والفؤاد يقظان . وكانت تمر بي لحظات كنت فيها برماً بنفسي متنكراً لها حاقداً عليها ، اذ اقول : « لماذا أحببتها أكثر من غيرها ؟ الأنها جميلة ؟ نعم ، ولكن كثيراً غيرها من النساء حسان الوجوه ، وهن فوق ذلك ، اشد منها ذكاء . ثم لأوديل اخطاؤها الكثيرة الكبيرة ، انها تجمجم بالقول ولا تنطق بالصدق ، وهذا أثقل شيء علي في الحياة واشد كرهاً . افلست اذاً بقادر على الخلاص منها ، والتحرر من هذا الاسر الشائن ؟ » وكنت أردد في نفسي أيضاً : « انك لاتحبها ، لاتحبها ، لاتحبها . » ولكن كنت اعلم ، مع ذلك ، ان هذا وهم خاطىء ، فأنا أحبها أكثر من اي وقت آخر دون أن أجد لذلك علة أو أعرف سبباً .

وكنت ألوم نفسي ، في لحظات أخرى لانني ، سمحت لها بالذهاب .

ولكن هل كنت استطيع منعها ؟ لقد تراءت لي وكأنها مدفوعة بعاطفة محتومة قوية لا تقاوم . واستعادت الذاكرة حينئذ خيالات عابرة لشخصيات فذة وبطلات قديمة . لقد أدركت أنها تأسف أشد الاسف لما تصنع ، ولكنها لاتستطيع له رداً او دفعاً . ولو انني تمددت ، في ذلك اليوم ، على القضبان الحديدية لكان بمقدورها ، لكي توافي فرانسوا ، ان تمر على جسمي بشفقة قاسية .

حاولت ، وقد تنفس الصبح او كاد ، ان اقنع نفسي بان الامر ماهو الا مجرد مصادفة ومحض اتفاق لايدل على شيء . ولربما كانت اوديل تجهل حتى وجود فرانسوا قريباً منها ، ولكنني كنت على ثقة واثقة ان هذا خطأ ووهم . وأخيراً ، ومع طلائع النهار ، تسرب النوم الى اجفاني ورأيتني ، فيما يرى النائم ، أتنزه في أحد شوارع باريس بالقرب من قصر البوربون ، وكان يضيء الشارع نور ضئيل ينبعث من مصباح قديم ، وأبصرت رجلاً يسرع أمامي تبينت فيه ملامح فرانسوا ، فاخرجت مسدساً من جيبي واطلقت عليه النار فهوى الى الارض ، وشعرت بشيء من الراحة الخجلى ، ثم مالبثت أن استيقظت .

وجاءتني ، بعد يومين ، رسالة من اوديل تقول فيها : « الطقس جميل . منظر الصخور رائع ، تعرفت في الفندق على سيدة عجوز تدعى مدام جوان وهي ، تعرفك تماماً . أن لها قصراً في ضواحي كاندما . اني اسبح كل يوم والماء دافيء . واقوم بسياحات في الضواحي . احب بريتانيا حباً جماً . أرجو أن تكون سعيداً ناعم البال ، لاتدع للتعاسة والألم سبيلاً الى نفسك .

هل أنت آخذ باسباب اللهو والسرور ؟ هل تناولت العشاء عند الخالة كورا يوم الثلاثاء الماضي ؟ وهل قابلت ميزا ؟ ثم ختمت رسالتها

قائلة : « اني أحبك كثيراً وأقبلك يا عزيزي » . لقد تبينت ان خط الرسالة اكبر من خطها المعتاد ، فخلصت من ذلك الى انها كتبتها على عجل ، انه ينتظرها وتقول له : « يجب ، على كل حال ، ان اكتب الى زوجي » . وعندما تخيلت وجه امرأتي في اللحظة التي تلفظت بها بتلك الجملة ، لم أستطع أن أمنع نفسي من ان اجدها جميلة رائعة ، وألا أرغب في شيء سوى عودتها .

-١٥-

بعد أسبوع من سفر اوديل ، حدثتني ميزا بالهاتف قائلة : « اني أعلم أنك وحيد ، فقد تركتك اوديل ، وأنا وحيدة كذلك ، لقد جئت أقضي زمناً يسيراً بين أسرتي ، فبي شوق لتنشق هواء باريس ، ولكن أسرتي ليست هنا ، وكل المنزل تحت تصرفي ، تعال لتراني .

قلت علني أنسى قليلا بالتحدث الى ميزا تلك الهواجس المقلقة والافكار السود التي ما زالت تلاحقني ، وعبثاً أحاول الخلاص منها ، فحددت موعداً للقاء في المساء نفسه . أقبلت تفتح الباب بنفسها ، فالدار خلت حتى من الخدم ، ورأيتها فاتنة رائعة التقاطيع . كانت ترتدي ثوباً ورديا من الحرير خيط على طراز ثوب لأوديل قد استعارت تصميمه منها . ولاحظت أيضاً أنها قد بدلت من زينة شعرها وجعلتها أشبه بزينة شعر اوديل . كانت عاصفة الظهيرة قد احالت الطقس الى شيء من البرودة التي زادت شدة في المساء ، لذلك أشعلت ميزا موقدها ، وأخذت تلقمه حطباً . جلست على طائفة من الوسائد تستدفىء أمام النار ، وجلست الى جانبها ، وشرعنا نتحدث أحاديث شتى . تحدثنا عن اسرتينا ، عن هذا الصيف الثقيل البغيض ، عن كانديما ، عن زوجها وعن اوديل ، وعندها قالت ميزا :

— هل تصلك أخبارها على الدوام ؟ انها لم تكتب الي ، وقبيح بها هذا . قلت لها انني تلقيت رسالتين منها ، فتابعت تقول :

— وهل تلقى أناساً هناك ؟ وهل سافرت الى برست ؟

– كلا ، فبرست بعيدة عن الجهة الموجودة فيها .

على ان سؤالها تراءى لي غريباً جداً . كان يلف معصم ميزا سوار أنيق تنتظم فيها حبات زجاجية خضر وزرق . أبديت لها اعجابي به ، وتناولت كفها لأرى السوار عن قرب ، فمالت الي ووجدتني أطوق خصرها بذراعي . استسلمت واستكانت ، وشعرت بجسمها عارياً لا يستره الا ذلك الثوب الوردي . ملت اليها وتلمست شفتيها ، وأحسست ايضاً ان نهديها ما زالا قويين مشرئبين كشأنهما في اليوم الذي تحدتني فيه ودعتني للنزال . ثم استلقت على ظهرها ، وهناك امام الموقد ، وعلى تلك الوسائد ، اصبحت لي خليلة . اني لا أشعر نحوها بعاطفة حب ، ولكني كنت اشتهيها فقلت بنفسي : « ان لم أظفر بها ، فاني اذاً لجبان » .

ووجدنا أنفسنا جالسين أمام الموقد نشهد احتضار الحطبة الاخيرة . أخذت يدها ، وشملتني بنظرة تنم عن السعادة والظفر ، وشعرت عندئذ بشيء من الكآبة والانقباض ، لدرجة تمنيت الموت معها . قالت ميزا :

– بمَ تفكر .

– باوديل هذه المسكينة ...

فشاع فيها الجمود والكمود ، وارتسم على جبينها خطان كئيبان ، واردفت تقول :

– اسمع ، ان حبي لك يمنعني أن أقول لك الآن أشياء مضحكة .

– ولماذا هي مضحكة ؟

فاعتراها تردد ، واطالت بي التحديق . ثم قالت :

– أتجهل الامر حقاً ، أم أنك تتجاهل ؟ .

لقد تنبأت بكل ما عسى ان تقوله لي ، وكنت قانعاً انه من

الخير منعها عن الافضاء بهذا الحديث ، لكنني كنت تواقاً للاطلاع على كل شيء ، لذلك أجبتها :

ـ الحقيقة انني جاهل لا متجاهل . قالت :

ـ آه ! كنت أعتقد انك عالم بكل شيء ، ولكن حبك الشديد لاوديل يمنعك من تركها ، وحتى من مفاتحتها بالامر . . . كنت كثيراً ما افكر انه من الواجب اطلاعك على كل شيء . . . لكنني كنت صديقة لأوديل ، فالمهمة كانت بالنسبة الي شاقة عسيرة . . . اما الآن فالامر عندي سيان ، لاني أحبك اضعاف حبي لاوديل . .

وأخبرتني عندئذ أن اوديل كانت خليلة لفرانسوا منذ ستة أشهر ، حتى انها كانت تعهد الى ميزا بمهمة ايصال رسائلها ، حتى لا تثير المغلفات المهورة بخاتم طولون أي اهتمام مني . ثم تابعت :

ـ انك لتقدر الآن كم كان هـذا الامر ثقيلا على نفسي . . . فأنا أحبك كثيراً . . أو لم تشعر بهذا الحب منذ ثلاث سنين ؟ . . حقاً ان الرجال قليلا ما يدركون . أما الآن فالامر بيننـــا على أحسن حال . ولسوف اجعلك ، كما ترى ، سعيداً جـــداً لانك جدير بهذه السعادة . فانا شديدة الاكبار لك ، شديدة الاعجاب بك . . . أنت شخصية فذة محببة .

وهكذا ارهقتني بهذا الفيض من المديح والاطراء الذي مـا كنت أجد فيه أية لذة ، بل كنت أقول في نفسي : « أي خطأ ارتكبت ، وأي طريق معوجة سلكت ؟ وما أنا بامرىء صالح ابداً ، لماذا أنا هنا ؟ ولماذا أخذت هذه المرأة بين ذراعي ؟ » .

كنا لا نزال نجلس قريبين من بعضنا ، اشبه بعاشقين سعيدين ، وكنت اشعر نحوها ، مع ذلك ، بالكره والاشمئزاز ، قلت لها :

– كيف اجترأت على العبث بثقة اوديل ؟ وما أقبح هذا التصرف منك ، انه تصرف بغيض .

نظرت الي بدهشة وذهول واستطاعت أن تقول :

– آه ! ان أقوى وأغرب مـــا في الامر ، أنك أنت الذي يدافع عن اوديل .

– نعم ، لم يرقني تصرفك هذا ، حتى ولو كان من أجلي ، فاوديل صديقتك على كل حال .

– لقد كانت صديقتي ، وأنا لا أحبها الآن .

– ومتى كان ذلك ؟

– منذ أن أحببتك .

– ولكن آمل كثيراً ألا تشعري نحوي بشيء من الحب ... فانا أحب اوديل كما هي (كنت احدج ميزا بنظرات الاتهـــام ، وكانت ترتجف) ، انها لا تبعث في نفسي الملل أبداً ، وهي ، بالنسبة الي ، السعادة والحياة . أجابت بمرارة :

– أنت غريب الاطوار ، ومن طراز خاص .

– ربما .

صمتت برهة تحلم ، ثم تركت رأسها يسقط على كتفي وقالت بألم عميق :

– اني أحبك على كل حال ، وسأجعلك سعيداً بالرغم منك ... ساخلص لك وأضحي من أجلك ... فانك ، كما ترى ، كدت تفقد عادة السعادة ، وسأردها اليك . أجبتها ببرودة .

– اشكرك ، أنا سعيد جداً .

ظل هذا المشهد يتكرر طوال قسم كبير من الليل . كان علينا سيماء المحبين ومظهرهم ، وكنا نصطنع أوضاعهم وحركاتهم ، لكنني كنت

أشعر نحوها بشعور غريب من الكراهية ، ومع ذلك فقد افترقنا بحنو وتبادلنا قبلة الوداع .

لقد أقسمت ألا أعود لرؤيتها ولكنني ، مع ذلك ، ذهبت للقائها مراراً في غياب اوديل . ان لميزا جرأة غريبة لا تصدق ، هي تعطى نفسها في البهو حيث يمكن ، في كل لحظة ، ان تدخل الخادم علينا . وكنت أبقى معها حتى الثانية أو الثالثة ، صامتاً مفكراً اكثر الاحيان ، كانت تسألني دون انقطاع ، وهي تحاول الابتسام بلطف :

– بماذا تفكر ؟

كنت أقول في نفسي : « كم هي مخطئة بحق اوديل » ولكنني كنت أجيبها .

– أفكر بك .

والان ، وأنا أتذكر هذه الحوادث بهدوء وروية ، أرى بوضوح أن ميزا لم تكن امرأة شريرة أبداً ، ولكني كنت أعاملها وقتئذ بكل جفوة وقسوة .

- ١٦ -

وأخيراً عادت اوديل ذات مساء ، فذهبت الى المحطة لاستقبالها . كنت قد عاهدت نفسي ألا أحدثها عن شيء أبداً . كنت أعلم علم اليقين ما عسى أن تكون مغبة حديث كهذا الحديث . ان وجهت اليها اللوم ، فما أيسر أن تنكر وتصر على الانكار . وان سردت لها اقوال ميزا ، فلا تلبث ان تتهمها بالكذب والافتراء . وانا أعلم أن ميزا صادقة في قولها . كنت أسير على رصيف المحطة ، وكانت رائحة الفحم والزيت تملأ الجو . كنت أسدر بين جموع هؤلاء الناس الغرباء مردداً في نفسي : « ما دمت لا أستطيع تذوق السعادة الا بالقرب منها ، وما دمت لا أقوى على قطع الاسباب بيني وبينها ، فمن الخير اذاً أن أمتع نفسي برؤيتها مرة اخرى ، وان اتحاشى اغضابها » . ثم لا ألبث أن أقول بعد برهة أخرى : « يا لي من جبان ضعيف ! ان ثمانية ايام آخذها بعنف وحزم ، تكفي لاجبارها على تغيير خطتها ، او تجعلني اعتاد الاستغناء عنها . »

وتقدم مستخدم وركز لوحاً كتب عليه . « قطار بوست السريع » فتوقفت .

واخيراً قلت في نفسي : « حقاً ان الامر غاية في الحرق والغباوة ، لو أنك لم تنزل في أيار من سنة ١٩٠٩ في الفندق الذي نزلت به في فلورنسا ، لكنت طوال حياتك تجهل وجود اوديل ماله ، ولكان في استطاعتك ، مع ذلك ، ان تحيا وان تكون سعيداً . فلماذا لا تبدأ

بقبول هذا الافتراض ، منذ هذه اللحظة، وتعتبرها غير موجودة ؟ » .

وعندها ابصرت عن بعد شرر القاطرة يتطاير وقطاراً قادماً يتلوى . كان كل شيء يتراءى لي وهماً بعيداً عن الحقيقة والواقع ، حتى انني ما كنت لأستطيع تخيل وجه اوديل . تقدمت خطوات الى الامـــام فابصرت الرؤوس تتدلى من الابواب ، وأخذ الرجال يقفزون من عربات القطار ولما يقف بعد . ومـا هي الا لحظة حتى غص رصيف المحطة بالوافدين الذين اخذوا يجدون في السير . وفجأة تبينت عن بعد شبح اوديل ، وفي ثوان معدودة كانت بالقرب مني الى جانب رجل يحمل لها حقيبتها الزرقاء . لقد كانت علائم الغبطة والمرح بادية على محياهـا .

وعند ما ركبنا العربة قالت لي :

– سنتوقف يا ديكي لشراء زجاجة من الشمبانيا وشيء من الكافيار ، وسنعد عشاء كعشاء امسية عودتنا من شهر العسل .

لعلك ترين في تصرفها هذا شيئا من الخديعة وحب التظاهر ، لكن من الواجب ان تفهمي اوديل لتستطيعي الحكم عليها . انها استمتعت ، ولا شك ، بتلك الايام التي قضتها بالقرب من فرانسوا ، فهي لذلـك على استعداد لترى السعادة في اللحظة الحاضرة ، وبمقدورها ان تردها الي اكثر هناء وجمالا ما استطاعت الى ذلك سبيلا . رأت انني كنت كئيباً لا أبسم لها فقالت ببأس :

– وماذا بعد يا ديكي ؟

ولم يكن قراري بالتزام الصمت قوياً جازماً ، فالافكار التي كنت أرغب في اخفائها عنها ، كانت تتكشف لها ، اجبتها :

– لقد قيل لي ان فرانسوا كان في بوست .

– ومن قال لك ذلك ؟

ـ الاميرال كارنيه .

ـ وليكن فرانسوا في بوست ، ثم ماذا بعد ؟ ومـــاذا يضيرك من هـذا ؟

ـ هذا يضيرني ، لان فرانسوا كان قريبـــاً منـك ، ومن السهل عليه ان يأتي ليراك .

ـ نعم ان ذلك سهل جداً عليه ، وسهل للغاية . واذا أحببت أن تعلم كل شيء ، فانه كان يأتي ليراني ، فهل يسوءك هذا ؟

ـ انك لم تكتبي الي ذلك .

ـ أواثق انت مما تقول ؟ كنت أعتقد انني أخبرتك ... وعلى كل ، فاذا لم أخبرك بذلك ، فلانني لم أجد لهذا الامر أية أهمية ، والحق انه أمر تافه قليل الخطر .

ـ ليس هـــذا رأيي . وقيل لي أيضا أن مراسلة سرية كانت جارية بينكما .

وهنا اضطربت اوديل وكادت تفقد توازنها ، وهذه هي المرة الاولى التي أراها فيها بهذا المظهر .

ـ من قال لك هذا ؟

ـ ميزا .

ـ ميزا ! انهـــا لشقية ، وهي تكذب ، وهل اطلعتك على بعض الرسائل ؟

ـ كلا ، ولكن لماذا تريدين ان تكون قد اختلقت الحديث اختلاقاً ؟

ـ انا لا أدري من ذلك شيئا ... ولعلها الغيرة .

ـ انها قصة تجعل المرء ينام واقفاً يا اوديل .

وصلنا الى المنزل فتلقت اوديل الخدم بابتسامة صافية ساحرة ، ثم

ذهبت الى الغرفة فنزعت قبعتها ،ونظرت الى المرآة لتصلح من شعرها ورأتني خلفها ، كانت عيناها تحدقان بصورتها المنعكسة في المرآة ، ولكنها ابتسمت لي أيضاً وقالت :

ـ اي طراز انت ياديكي ! اني لا أستطيع أن أتركك وحدك ثمانية ايام ، دون ان تنتابك الهواجس المقلقة والفكر السود . . . انك لجحود ياسيدي . . . لقد كنت أفكر فيك دوماً وسأبرهن لك ذلك ، اعطني حقيبتي .

فتحت الحقيبة واخرجت منها رزمة تحوي كتابين الاول ، « احلام متنزه وحيد » والثاني « الراهبة » والكتابان مطبوعان طبعة قديمة ، قلت لها :

ـ شكراً يا اوديل . . . هذا كثير جداً . . . كيف عثرت عليها ؟

ـ فتشت جميع مكتبات برست القديمة يا سيدي ، انني أردت أن احمل اليك شيئاً ما .

ـ فهل كنت اذن في برست ؟

ـ بالطبع ، هي قريبة جداً من مكان اقامتي ، وهناك قوارب تسهل النقل ، ثم منذ عشر سنوات وانا تواقه لرؤية برست . . . والآن الا تقبلني من اجل هديتي الصغيرة ؟ كنت اتأمل ان انال بها فوزاً مبيناً . . . فاذا بها تسبب لي السوء . . . انهما نسختان نادرتان جداً يا ديكي ، وقد ذهبتا بكل ما اقتصدته .

وعندئذ قبلتها وشعرت نحوها بمشاعر متباينة معقدة ، لم استطع لها فهماً صحيحاً . كنت أمقتها وأعبدها . أعتقد أنها بريئة ومجرمة . والمشهد العنيف الذي كنت قد أعددته ما لبث ان استحال الى محادثة ودية ، واخذنا ندير الحديث طوال السهرة عن خيانة ميزا ، كأن الاخبار التي

ومست بهـــا الي (والتي هي صادقة ولا شك) ، كأنها لا تتعلق بي ولا باوديل ، بل بزوجين صديقين لنا ، نعمل على حماية سعادتهما .

قالت اوديل :

– آمل الا تراها بعد الآن .

ولقد وعدتها بذلك .

لم أدر أبداً ماحدث في اليوم الثاني بين أوديل وميزا . هل تحدثتا هاتفياً ، أم هل ذهبت اوديل لمنزل ميزا ؟ أنا أعلم أنها صريحة قاسية ، وهـذا عنصر من عناصر جرأتها التي تكاد تصل لدرجة التحدي ، هـذه الجرأة التي كانت تسر تحفظي الوراثي الصموت وتجرحه في آن واحد . أمـــا أنا فلم ألق ميزا أبداً ولم أسمع شيئاً عنها ، واحتفظت لذلك الاتصال القصير بذكرى أشبه بالتي يتركها حلم من الاحلام .

- ١٧ -

ان الشكوك التي تنتاب العقل لانستطيع القضاء على الحب الا على مراحل متعاقبة . ففي الامسية الأولى بعد عودتها ، استطاع لطف اوديل وحسن تصرفها ، وما احسست به من لذة بلقائها ، استطاع كل ذلك ان يؤخر وقوع الكارثة . على ان كلا منا قد ادرك ، بعد هذه اللحظة ، اننا نعيش في منطقة ملغومة لابد ان تنفجر يوماً ما . وما كنت أستطيع التحدث الى اوديل الا بلهجة تحمل طابع الحسرة والمرارة ، حتى في اللحظات التي كنت اشعر نحوها بحب عظيم . كانت عبارات التأنيب تمر بأقوالي ، حتى العادية المبتذلة ، كما تمر الغيوم العابرة بالافق البعيد . وبدلا من فلسفة التفاؤل المرح التي كنت اصطنعها في في الشهور الاولى من حياتي الزوجية ، حلت محلها فلسفة من التشاؤم الكئيب . والطبيعة التي طالما احببتها منذ ان كشفت لي عنها اوديل اصبحت لا أرى فيها الآن الا شيئاً عادياً حزيناً . حتى جمال اوديل اصبح غير كامل ، فقد يتأتى لي أن أتبين في ملامحها بعض القسمات الشوهاء . ولكن سرعان ما يتبدل الامر ، فما هي الا دقائق خمس ، حتى اتطلع مرة اخرى الى ذلك الجبين الاملس والعينين الصافيتين ، وأعود أحبها من جديد .

وفي مطلع آب ذهبنا الى كانديما . ان الوحدة والبعد وانقطاع المراسلات والمخابرات الهاتفية انقطاعاً تاماً ، كل ذلك اشاع في نفسي بعض الاطمئنان ، واعطاني فترة راحة لبضعة أسابيع . وكان للاشجار

والمزارع المشرقة ، والمنحدرات المغطاة بالصنوبر تأثير كبير على اوديل . ان الطبيعة لتبعث فيها لذات تكاد تكون حسية ، وهي تحمل هذه اللذات ، بصورة لا شعورية ، الى كل من يكون برفقتها ، حتى ولو كنت انا ذلك الرفيق . تستطيع العزلة التي تفرض على شخصين ان توجد تسامياً بطيئاً في العواطف ، وان تمكن الثقة بينهما ، شريطة الا تمتد هذه الوحدة الى حد السآمة والضجر . لقد كانت اوديل تقول في نفسها « في الواقع ، انه لطيف » . وشعرت انني قريب جداً منها .

اني ما أزال أذكر أمسية من هذه الامسيات ، لقد كنا وحيدين على السطح حيث ينكشف امامنا أفق مديد من الجبال والغابات ، وكنت أرى بوضوح أيضا المنحدر المقابل تكسوه الاعشاب . كانت الشمس آخذة في المغيب وقد شاع في الكون سحر وهدوء . ان أعمال الانسان لتبدو ضئيلة تافهة أمام عظمة الطبيعة . لقد أخذت أتحدث الى اوديل احاديث شتى تحمل طابع الحنو والضراعة ، والغريب انها كانت موجهة من رجل قد صمم على فقدها . قلت :

— اية حياة جميلة نستطيع ان نحياها يا اوديل . . . لقد احببتك كثيراً . . . هل تذكرين فلورنسا ، عندما كنت لا أستطيع البقاء دقيقة واحدة دون أن أنظر اليك ؟... أنا لا أزال على استعداد لان اكون كذلك يا عزيزتي ...

— انه ليسرني ان تقول هذا القول . . . انا ايضاً احببتك بجنان كثير . وكم كان أملي فيك كبيراً . . . قلت مرة لوالدتي : « لقد وجدت الرجل الذي سيربطني به دوماً ، ولكن خاب بعد ذلك ظني .

— هل كنت أنا السبب ؟.. ولماذا لم تخبريني بذلك ؟

— انت تعلم ذلك جيداً يا ديكي . . . انه كان من المحال ، لانك

وضعتني عالياً جداً . فخطؤك الكبير يا ديكي ، انك تتطلب كثيراً من النساء وتنتظر منهن الكثير . انهن عاجزات . . . ولكني مسرورة على كل حال ، لعلمي انك ستأسف على فراقي عندما سأتركك الى الابد .

لقد قالت هذه الجملة بلهجة من التنبؤ الاليم ، اثرت في تأثيراً عميقاً وقد اجبتها :

ـ ولكن ستكونين دوماً الى جانبي .

ـ انك لتعلم العكس جيداً .

وفي هذه اللحظة أقبل أقاربي .

كنت اذهب باوديل كثيراً الى « مرصدي » خلال هذه الفترة . انها تحب هذه الجهة المنعزلة حباً جماً . كانت تحدثني هناك عن عهد الصبا وعن فلورنسا ، ثم عن احلامنا على ضفاف التاميز . لقد احتويتها بين ذراعي فلم تبد حراكا . كانت تبدو عليها علائم السعادة والرضى ، قلت في نفسي : « لماذا لا نرضى ان نبدأ دوماً حياة جديدة ، يكون فيها الماضي كحلم عابر من الاحلام ؟ ثم هل انا ، في هذه اللحظة ، الرجل الذي احتضن ، فيما مضى ، دونيز اوبري في هذا المكان نفسه ؟ وهل من الممكن ان تكون اوديل قد نسيت فرانسوا ، منذ ان جاءت الى هنا ، تمام النسيان ؟ » . ولكن بينما كنت احاول ، على هذه الصورة ، بناء صرح سعادتي من جديد ، وبأي ثمن كان ، كنت أعلم أن هذه السعادة خيالية ، وان هذه الغبطة الحالمة التي كانت تبدو على اوديل انما جاءت ، ولا شك ، من تفكيرها ان فرانسوا يحبها .

وكان في كانديما شخص يعلم ما يجري في حياتي الزوجية هي أمي . لقد قلت لك انها لم تحب اوديل الحب الكثير ، ولكنها لم ترد ابداً ، لطيبتها ، ان تكشف لي عن شعورها نحو اوديل لما رأت حبي لها

وتعلقي بها . . في اليوم الذي سبق سفري من كانديا لقيت امي صباحاً في البستان ، سألتني اذا كنت راغباً في نزهة معها . تطلعت الى الساعة فوجدت ان اوديل لن تكون على استعداد قبـــل وقت طويل ، قلت لوالدتي :

- نعم ، انه ليروق لي أن أهبط الى الوادي ، فأنا لم اقم بصحبتك بمثل هذه النزهة منذ ان كنت في الثانية او الثالثة عشرة من عمري .

هزتها هذه الذكرى وغدت اقل تحفظاً من المعتـاد ، وحدثتني في البدء عن صحة والدي ، وكان الطبيب قلقاً عليه ، ثم قالت لي وهي تحدق في حصى الطريق .

- ما الذي جرى بينك وبين ميزا ؟

- ولماذا تسألينني هذا السؤال ؟

- لأنكم لم تروا ميزا ، منذ قدومكم ، الا مرة واحدة . . واني دعوتها لتناول طعام الغداء في الاسبوع الماضي فرفضت . ولم يسبق ان حدث مثل هذا أبداً . . . وأرى ان حادثاً قد جرى بينك وبينها .

- نعم هناك حادث يا أمي ، ولكنني لا أستطيع اطلاعك عليه . . ان ميزا سيئة السلوك تجاه اوديل .

تابعت أمي سيرهـــا برهة بصمت ، ثم قالت بصوت خافت مرير :

- أواثق أنت أن اوديل ليست سيئة السلوك تجاه ميزا ؟ اسمع : أنا لا أريد التدخل بينك وبين امرأتك ، ولكن يجب أن أصارحك ، ولو مرة واحدة ، فكل النـاس يلومونك حتى والدك . انت ضعيف جداً ، ثم انك تعلم مبلغ خشيتي من اللغط ، وبودي الاعتقاد ان كل مايقال غير صحيح ، ولكن اذا كان الامر كذلك ، فجـدير بك ان تأخذ عهداً عليها ان تسلك مسلكاً بعيداً عن اللغط وتقولات الناس .

كنت استمع الى والدتي وأنا أضرب بعصاي رؤوس الأعشاب الضعيفة . وكنت أعلم أنها على حق ، وأنها كتمت الامر عني زمناً طويلاً . وجال بخاطري ان ميزا قد اخبرت والدتي بالامر ، وربما افضت اليها بكل شيء . ان والدتي ترتبط بميزا برباط وثيق منذ ان اقامت ميزا في كانديما ، وهي تعاملها باحترام وتقدير . اجل ، ان والدتي تعلم الحقيقة ولا شك . على أنني عندما سمعت منها ذلك الهجوم على اوديل ، وهو في الواقع هجوم صادق معقول ، تملكني شعور الفروسية ، وصرت أدافع بقوة عن زوجتي ، وأظهرت ثقة بها مصطنعة ، كما خلعت عليها فضائل لا اعتقد بوجودها فيها .

كان يجبل لي ان واجبي ، في ذلك الصباح ، هو تأليف جبهة ، مني ومن اوديل ، ضد الحقيقة والواقع . كنت أشعر بالرغبة في اقناع نفسي انها ماتزال تحبني ، لذلك اطلعت والدتي على كل مايظهر تعلق اوديل بي : من الكتابين اللذين تعبت في الحصول عليهما في برست ، الى الرقة البادية في رسائلها ، الى مسلكها الحنون العطوف منذ قدومنا الى كانديما . كنت شديد الحماسة في دفاعي لدرجة اعتقدت معها اني استطعت زحزحة اعتقاد والدتي بأوديل ، ولكن لم استطع ، ويا للأسف ، زحزحة اعتقادي فيها ، لأنه كان اعتقاداً راسخاً جازماً .

اني لم اطلع اوديل على هذا الحديث .

— ١٨ —

عاد شبح فرانسوا للظهور في مجرى حياتنا منذ ان عدنا الى باريس . انه شبح مبهم غامض ، لكنه موجود ابداً . أنني لا أدري كيف كان يتصل بأوديل بعد أن خاصمت ميزا ، ولا أزال أجهل ذلك حتى الآن . ولاحظت ان اوديل اعتادت ان تهرع الى الهاتف كلما دق الجرس ، كأنها تخشى ان اطلع على مخابرة ترى من الواجب بقاءها مكتومة عني . كانت لاتقرأ الا كتب البحار ، ويأخذها فتور نشوان كلما أبصرت صوراً تمثل المراكب والامواج ، مهما تكن تلك الصور عادية مبتذلة .

تلقت ذات مساء برقية باسمها ، وبعد أن فضتها قالت : «لاشيء» ، ثم مزقت البرقية قطعاً صغيرة . قلت :

— ولكن كيف تقولين « لاشيء » ، ماهذه البرقية ؟

— هي تتعلق بثوب لي لم ينته بعد .

كنت أعلم من الاميرال كارنيه ان فرانسوا في برست ، فكان هذا مدعاة لهدوئي واطمئناني ، ولكني لم أكن كذلك ، وانا محق الا اكون .

وكان يتفق ان تمر بنا ، بعض الاحيان ، لحظات من الصفاء والحنان بتأثير موسيقى عذبة ساحرة ، او بعد قضاء يوم خريف جميل . كنت أقول لها :

— اذا قلت لي الحقيقة ، ياعزيزتي ، عن الماضي ، الحقيقة كلها ،

فسأحاول النسيان ، وسنبدأ حياة جديدة ملؤها الثقة والصفاء .

هزت رأسها بيأس ، لاخبثاً ولا غضباً ، فهي لاتنكر هذا الماضي ابداً ، وكان اعترافها بذلك اعترافاً صامتاً ضمنياً . قالت :

ـ كلا يادبكي ، أنا لا أستطيع ذلك ، فهذا أمر عديم الفائدة لانه كثير الاختلاط ، وليس بمقدوري أن أعيد اليه النظام ... ولا أستطيع ، فوق ذلك ، أن أجد لك تفسيراً لبعض ما اقول ، او تبريراً لبعض التصرفات . . . كلا ليس في الامكان عمل أي شيء . . . وانا اعلن أمامك التراجع والعجز .

كانت هذه المحادثات الودية العاطفية تنقلب ، في اغلب الاحيان ، الى شيء من الاستنطاق والتحقيق العدائيين . فكانت كلمة منها تكفي لاثارة دهشتي ، فعندئذ أكف عن الاستماع لاوديل ، وآخذ بتتبع بواعث تلك الكلمة ، ثم لايلبث السؤال الخطير أن يتردد على شفتي ، فاحاول ايقافه لحظة ، ولكن عندما أشعر بالضيق اترك له العنان . كانت اوديل تسعى جهدها ان تحمل الامر على محمل الهزل ، ثم يعتريها الغضب عندما ترى في وجهي علائم الصرامة والجد ، وتقول :

ـ آه ! كلا ، كلا ، كلا ، ان سهرة معك هي فترة الم لي وعذاب . فانا ارغب في الذهاب ، لاني سأغدو مجنونة إن بقيت هنا .

وكان يعاودني الهدوء خشية فقدانها ، فأبدي لها معاذيري . كنت أرى أن كل مشاحنة من هذه المشاحنات من شأنها ان تحل رابطة من تلك الروابط الواهية . ثم ماذا يضطرها الى البقاء زمناً طويلاً وليس بيننا اولاد ؟ اعتقد ان سبب ذلك كثير من الشفقة وقليل من الحب . ان العواطف تتوضع ، احياناً ، فوق بعضها دون ان تذهب عاطفة بأخرى ، والنساء خاصة تتملكهن رغبة قوية ، في بعض

الاحيان ، للاحتفاظ بكل شيء وعدم التفريط به .

كانت عقيدة اوديل الدينية عقيدة راسخة ، ولم تكن لتظهرها الا قليلاً . وقد عمل فرانسوا على اضعاف هذه العقيدة ، لكنها ظلت حية في نفسها على كل حال ، لذلك كانت تخشى الاقدام على الطلاق . واوديل ، ان لم تكن مرتبطة بشخصي ، فهي مرتبطة ، على الاقل ، بحياتنا المشتركة بدافع من حبها الصبياني للاشياء . هي تحب هذا البيت الذي اشرفت على تأثيثه وأراقت عليه من ذوقها الرفيع . فهذه كتبها المفضلة قد بعثرت على منضدة صغيرة في غرفتها ، وهذه الآنية التي تحمل دوماً زهرة وحيدة جميلة جداً . لقد كانت تشعر ، عندما تعتصم بهذه الوحدة ، انها في مأمن مني ، ومن نفسها أيضاً . لذلك تجد الكثير من العسر والمشقة في انتزاع نفسها من هذا الجو . ان تركها اياي لتعيش بكنف فرانسوا ، معناه السكن في طولون اوبوست معظم أيام السنة ، معناه التخلي عن اكثر اصدقائها ، ثم ان فرانسو لا يستطيع املاء حياتها خيراً مني .

ان ما تحتاج اليه اوديل ، وادفع ثمنه الآن ، هو تلك الحركة الدائمة المتصلة من حولها ، ومشاهدة انماط شتى من النفوس المختلفة والشخصيات المتباينة . على انها ، هي نفسها ، لا تدرك هذا الامر . هي تشعر بالعذاب اذا ابعدت عن فرانسوا لانه الشخص الذي لم تره الا قليلا ، والذي لم ينفض أمامها ، بعد ، كل ما تحوي جعبته . لذلك يتراءى لها انه حافل بكل طريف جديد . لقد كنت ذلك الشخص الاسطوري الفاتن خلال اقامتنا في فلورنسا ، وسياحتنا في انكلترا . لكنني لم استطع الحياة في مستوى الرجل الخيالي الذي علقت اوديل عليه الآمال لقد اخفقت وقضي عليّ ، وجاء الان دور فرانسوا .

انه سيجتاز ، هو ايضاً ، طور التجربة والمعرفة ، فهل يستطيع المقاومة ياترى ؟

واعتقادي ان اتصاله باوديل سيزداد أن هو أقام في باريس . وستدرك خطأها بما أملت فيه من مؤهلات وصفات . اما الان ، فهو عنها بعيد ، وهي بحاجة اليه . ثم ما هي الاحاسيس التي كان يشعر بها فرانسوا ؟ اني أجهل ذلك ، ولكن من المستحيل الا يهزه الشعور من انه استطاع الظفر بمخلوق جد جميل ، وفي الوقت نفسه لا بد وان تسوءه فكرة الزواج .

مر فرانسوا بباريس خلال عطلة عيد الميلاد ، وقد ترك برست في هذه المرة ليستقر في طولون . قضى يومين في باريس كان سلوك اوديل خلالها سلوكا طائشاً مجنوناً .

لقد عرفت بقدومه بسبب اتصال هاتفي جرى عند الصباح قبل ذهابي الى مكتبي . ولقد أدركت حالا أنه هو المتكلم لما ارتسم على وجه اوديل ، خلال المحادثة ، من تعبير مدهش غريب . أنا لم أر وجهها أبداً على هذه الحالة من الحنان والتوسل والاستعطاف . يقيناً انها لم تدر ، عند ما تناولت السماعة السوداء ، وهي بعيدة عن عشيقها ، لم تدر انها فضحت نفسها بتلك الابتسامة الصافية الساحرة . قالت :

ـ نعم ... انا مسرورة بسماع صوتك ... نعم ، ولكن ... نعم . نعم . لكن ... (وهنا نظرت الي بشيء من الارتباك ثم تابعت تقول) اسمع ، اتصل بي بعد نصف ساعة .

سألتها من كانت تحدث ، لكنها وضعت السماعة غير مبالية ، كأنها لم تسمع سؤالي .

وعندما عدت ظهراً لتناول الطعام ناولتني الخادم ورقة كتبت عليها

اوديل : « اذا عدت فلا تقلق ، لقد اضطررت الى تناول طعام الغداء خارج المنزل ، فالى المساء يا عزيزي » . قلت للخادم :

– هل خرجت السيدة منذ زمن طويل .

– نعم ، منذ العاشرة .

تناولت طعامي وحيداً ، وكنت أرغب في رؤية اوديل حين تعود ، اذ عزمت ، هذه المرة ، ان اطلب اليها الخيار بيني وبينه . وقضيت فترة ما بعد الظهيرة قلقاً متألماً . وحوالي الساعة السابعة دق جرس الهاتف فاذا بصوت اوديل يقول :

– آلو ... هذا انتِ يا جوليت ؟

كلا ... انا فيليب .

– هل عدت ... اسمع . اني أرغب في استئذانك بتناول طعام العشاء خارج المنزل .

– كيف ذلك ؟ وأين ؟ ولماذا ؟ فانت تناولت طعام الغداء خارج المنزل ايضاً .

– نعم ، ولكن اسمع ... انا في كوبين ، واكلمك الآن من هناك ، وسوف أصل متأخرة ان قدمت لتناول العشاء .

– ماذا تصنعين في كوبين والليل قد اقبل ؟

– ذهبت للتنزه في الغابة ، الطقس جميل في هذا البرد الجاف ، ثم انني لم اتوقع عودتك الى المنزل لتناول طعام الغداء .

– اسمعي يا اوديل ، انا لا أريد مناقشتك في الهاتف . ان شأنك لغريب ، عودي سريعاً .

وعادت في العاشرة ليلاً وقد اجابت على توبيخي بقولها :

– نعم ، والأمر كذلك غداً ، فانا لا أريد البقاء الآن في باريس .

وبان عليها ، مرة أخرى ، ذلك المظهر من التصميم القاسي العنيد الذي صدمني حين اخذت القطار الى برست ، والذي جعلني افكر حينئذ انها ستمضي قدماً في طريقها ولو تمددت على القضبان الحديدية تحت القطار .

جاءتني ، بعد يومين ، حزينة النفس ، تطلب الي ان ارتضي بالطلاق ، وأن أدعها تعيش مع أسرتها حتى الوقت الذي تستطيع فيه الزواج بفرانسوا . كنا عندئذ في غرفتها قبل تناول العشاء ، لقد قاومت الفكرة قليلاً ، ولكنني كنت اعلم ، منذ زمن طويل ، ان الامر بيننا يجب ان ينتهي على هذا الشكل . ومع ذلك فان الشعور الاول الذي خامرني بشأن الطلاق كان شعوراً وضيعاً غير نبيل . لقد فكرت انه لم يسبق لاحد من عائلة مارسنا ان لجأ الى الطلاق ، ثم انني ساشعر بالخزي والصغار عند ما أخبر الاسرة بهذه الحادثة الفاجعة .. كذلك شعرت بالخجل الشديد لهذه الفكرة الوضيعة ، وأملت علي الشهامة ألا أفكر الا في مصلحة اوديل . وسرعان ما سما الحديث بيننا سمواً عالياً ، وغدت اوديل عاطفية ودودة ، شأنها عندما تتحدث بصدق واخلاص .

حان موعد العشاء ، فجلسنا الى المائدة ، الواحد قبالة الآخر ، ولم نتحدث قط بسبب وجود الخادم . اخذت اتأمل هذه الصحون وهذه الاقداح ، وكل هذه الاشياء التي تحمل ، جميعها ، ذوق اوديل وطابعها الخاص . ثم اخذت اتأمل اوديل نفسها وأقول في نفسي : « لعلي أشاهد ، للمرة الاخيرة ، هذا الوجه الذي استطاع ان يحمل الي كثيراً من السعادة . » كانت ، هي ايضاً ، تحدق بي ساهمة شاحبة ، وربما كانت تريد ، مثلي ، ان تثبت في ذاكرتها ، ولوقت طويل ، ملامح لن تراها بعد أبداً .

عدنا بعد الطعام الى غرفتها وتحدثنا حديثاً طويلاً عن حياتنا المقبلة ، وقد زودتني ببعض النصائح فقالت :

- يجب ان تتزوج ثانية ، وأنا واثقه انك ستكون زوجاً صالحاً لامرأة اخرى . أما أنا فلم أكن لأصلح لك . لكن أياك أن تتزوج ميزا فذلك يسوءني . ان ميزا امرأة خبيثة ، اما المرأة التي تليق بك ، وتصلح لك ، فهي ابنة عمك رنه ..

- انت مجنونة يا عزيزتي ، انني لن أتزوج أبداً .

- ولكن لا ... فذلك واجب عليك ... ثم عندما تفكر بي ، فكر دون حنق أو حقد ، لقد أحببتك كثيراً ياديكي ، واني اعرف جيداً كم أنت تساوي بين الرجال . وثق أنني ان لم أكن أطريك كثيراً ، فذلك لانني خجول بالطبع ، ولا أحب التمدح ابداً ... ولكن كنت أراك تقوم ، اغلب الاحيان ، باعمال لايقوم بها رجل آخر في مكانك . كنت أفكر وأقول : « هذا رجل طيب جداً على كل حال » . ثم انني أرغب أن أعلمك أمراً ربما سرك ، وهو انك تعجبني اكثر من فرانسوا من نواح عديدة ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

- ولكنه قدر محتوم . يخيل لي انني اغدو ، بعد بضع ساعات أقضيها معه ، أوفر قوة وأشد نشاطاً ، وانني احيا حياة جميلة زاخرة . وربما كنت واهمة ، وكنت ، في الواقع ، أسعد معك واكثر هناء ، ولكن الامر كما ترى . انه ليس خطيئتك يا فيليب ، ولا هو خطيئة أحد ...

وعندما افترقنا ، وقد تقدم الليل ، مدت الي شفتيها بصورة عفوية وقالت :

- آه ! يالنا من تعيسين جداً .

وبعد ايام ، تلقيت رسالها منها تشيع فيها الرقة والكآبة ، ذكرت فيها انها احبتني زمناً طويلاً ، وانه لم يكن لها عشيق قبل فرانسوا .

هذه هي قصة زواجي ، ولست أدري هل استطعت - وأنا أسردها لكِ - تحقيق رغبتي في انصاف اوديل . لقد حرصت على ان أجعلك تشعرين بسحرها الاخاذ وكآبتها الغامضة وتصرفاتها الصبيانية . فالجميع من حولي ، سواء الاهل او الاصدقاء ، أخذوا يحكمون على اوديل بعد ذهابها حكماً صارماً قاسياً . أما أنا ، الذي خبرتها جيداً الى أبعد حد يمكن ان تختبر به مثل هذه الفتاة الصغيرة الصامتة ، فكنت لا أرى أخف منها مسؤولية وجرماً .

= ١٩ =

لقد اصبحت تعيساً جـــداً بعد ذهاب اوديل . وتراءى لي المنزل شديد الكآبة ، فكنت القى مشقة كبيرة لأستطيع المكوث فيه . كنت أدخل غرفة اوديل في بعض الامسيات ، وأجلس على أريكة بالقرب من سريرها ، كما كنت افعل في حضورها . ثم أشرع أفكر في حياتنا الماضية . كانت تهز ضميري وخزات مبهمة ، ولكن لم اكن لأجد شيئاً واضحاً يدعو الى التأنيب ووخز الضمير . لقد تزوجت اوديل زواج حب ، وكانت أسرتي تتمنى لي زواجاً أحسن وألمع من هذا الزواج . كنت شديد الاخلاص لاوديل حتى الامسية التي اتصلت فيها بميزا . وحياتي القصيرة هذه كانت بسبب خيانتها لي . كنت غيوراً ولاشك ، لكنها لم تحاول القيام باية بادرة تبعث الاطمئنان في نفس زوج قلق محب . كل هذا صحيح ، وانا به عليم ، لكني كنت أشعر بتحمل قسط من المسؤولية كبير . وتكشفت لي حقيقة جديدة حول العلاقات التي يجب ان تقوم بين الرجال والنساء ، لقد أدركت أن النساء ، وهن مخلوقات قلقات حائرات ، يفتشن دوماً عن موجه قوي يستطيع تثبيت أفكارهن القلقة ورغباتهن الحائرة . وربما كانت هذه الحاجة هي التي جعلت من الرجل تلك الموصلة الحساسة والنقطة المثبتة . ان الحب العظيم لايكفي للاحتفاظ بالمحبوب اذا لم يكن من المستطاع املاء حياة هذا المحبوب بكل ممتع طريف يتجدد على الدوام . ماذا تستطيع اوديل أن تجد في ؟ اني أقبل كل مساء من مكتبي حيث أشاهد دوماً اشخاصاً

بدانهم ، وادرس المسائل عينها . ثم اجلس على الاريكة اتطلع الى وجه زوجي ، لقد كنت سعيداً ان أراها جميلة فاتنة . ولكن كيف تستطيع ، هي ، ان تعرف السعادة بهذا التأمل الثابت الطويل ؟ ان النساء يعلقن بطبيعتهن بالرجال الذين تكون حياتهم حركة دائمة متصلة ، والذين يستطيعون اثراكهن في هذه الحركة ، الرجال الذين يعطونهن عملاً من الاعمال ويتطلبون منهن الكثير ... كنت اتأمل سرير اوديل الصغير . كم أدفع الآن من ثمن كي أرى من جديد ذلك الجسم الممدد وذلك الرأس الاشقر ؟ على انني لم أدفع الا القليل عندما كان من السهل جداً الاحتفاظ بكل ما أريد . فبدلا أن أحاول فهم ميولها ورغائبها ، فأني عملت على القضاء عليها ، وأردت فرض ميولي ورغائبي . ان الصمت المفزع ، الذي يشملني الآن في هذا المنزل الخاوي ، لهو العقاب على مسلكي معها ، ذلك المسلك الذي لم يكن على شيء من الحبث ، ولكنه لم يكن ايضاً على شيء من سمو النفس .

كان علي ان اغادر باريس ، لكني لم استطيع اتخاذ قرار حاسم بذلك . كنت أجد لذة اليمة بالتعلق باتفه الاشياء التي تذكرني باوديل ، ففي هذا المنزل يخيل الي ، على الاقل ، انني أستمع في الصباح ، وأنا بين اليقظة والنوم ، الى صوت واضح حلو يصيح من الباب المفتوح : « صباح الخير ياديكي » .

كنت أقضي الليالي أحاول معرفة الزمن الذي بدا فيه ذلك الشر المستطير . لقد كنا سعيدين جداً عند عودتنا من انكلترا ، كانت تكفي جملة تلفظ بلهجة أخرى وبجزم ناعم لانهاء النقاش بيننا ، فكان مصيرنا معلقاً على ايماءة أو كلمة ، وكان أقل مجهود في البدء قادراً على ايقافها ، ثم ما لبثت المناقشات الطويلة ان اخذت تلعب دورها . والآن أشعر

ان اروع الاعمال بطولة وسمواً لا تستطيع ان تبعث في نفس اوديل الحب الذي كانت تكنه لي من قبل .

لقد تم التفاهم قبل ذهابها على طريقة تقديم دعوى الطلاق ، وكان من المتفق عليه أن أوجه اليها رسالة مهينة تتخذها حجة ضدي . دعيت بعد ايام الى قصر العدل لمحاولة التوفيق بيننا . ان رؤية اوديل في مثل هذا المحيط لأمر بشع شنيع . كان زهاء عشرين زوجاً ينتظرون ، وكان حاجز يفصل الرجال عن النساء لتجنب المشاكل . وكان هناك أشخاص يتبادلون الشتائم عن بعد ، وبعض النساء آخذات بالنحيب والبكاء . كان جاري سائقاً حدثني فقال : « عزاؤنا اننا كثيرون جداً » . اومأت الى اوديل ايماءة حلوة ودية ، وأدركت اني ما أزال على حبها .

اخيراً جاء دورنا . كان القاضي رجلاً رقيقاً عطوفاً ، فطلب الى اوديل ان تحافظ على هدوئها ، وشرع يحدثنا عن ذكرياتنا المشتركة وعن روابط الزواج ، كما حثنا على تجربة الصلح للمرة الاخيرة . قلت له : « هذا مستحيل مع الاسف الشديد . »

كانت اوديل تحدق امامها لا يرف لها طرف ، وعليها مظاهر الألم والعذاب . قلت لنفسي : « لعلها آسفة قليلاً . . . ولعلها لا تحبه بالقدر الذي اتخيله . . وهل أدركت انها مخدوعة ياترى ؟ . . » . ولما رأى القاضي صمتنا ، دعانا للتوقيع على محضر الدعوى . ثم خرجنا معاً ، انا واوديل ، قلت لها :

- اترغبين بالسير بضع خطوات ؟

- نعم ، الطقس جد جميل ، وانه لشتاء ساحر .

ذكرت لها انها تركت عندنا كثيراً من متاعها ، وسألتها هل من الواجب علي ارسال هذا المتاع الى أسرتها فقالت :

ـ اذا كنت تريد ، ولكن يمكنك الاحتفاظ بكل ما يروق لك . انا لست بحاجة الى شيء ، وعلى كل فلن اعيش طويلاً يا ديكي ، وسرعان ما تمحي ذكراي من نفسك .

ـ ولم هذا القول يا اوديل ؟ أأنت مريضة ؟

ـ اوه ! كلا ، ابداً ، انما هو محض شعور ... واوصيك ، على الاخص ، ان تستبدل بي زوجة اخرى ، فوثوقي من انك سعيد يعينني كثيراً على الحياة .

ـ انا لا أستطيع أن أكون سعيداً بدونك .

ـ بلى ، فالامر على النقيض ، وسترى عن قريب انك ستكون هانيء النفس ناعم البال ، لانك تخلصت من امرأة لا تحتمل .. اني لاأهزل ، فالحق اني امرأة لا تحتمل ... ما أجمل نهر السين في هذا الفصل !

وقفت أمام حانوت يبدو من زجاجه الخارجي مصورات بحرية ، وانا أعلم مبلغ حبها لهذه المصورات ، فقلت لها :

ـ هل تريدين أن أشتريها لك ؟

نظرت الي بحنو كئيب وقالت :

ـ كم انت لطيف ! نعم أريد ذلك ، وهذه آخر هدية أتلقاها منك .

دخلنا الحانوت فاشترينا مصورين ، ثم ناديت سيارة لتضعهما فيها ، خلعت قفازها لتقدم لي يدها أقبلها وقالت لي :

ـ شكراً على كل شيء .

- ٢٠ -

لم تستطع أسرتي أن تقدم لي أي عون في تلك الوحدة الشاملة التي وجدت نفسي غارقاً بها . كانت والدتي سعيدة في الواقع لتخلصي من اوديل . وهي لم تفض الي بشيء من ذلك ، لما أكابد من ألم وعذاب ، ولانه من عادة أسرتنا عدم الخوض بامثال هذه الاحاديث . وكنت أعرف شعورها هذا ، لذلك أصبح حديثي معها على شيء من الصعوبة والارتباك . كان والدي مريضاً جـداً اذ أصيب باحتقان في الدماغ أحدث له شللاً في اليد اليسرى وتشويهاً خفيفاً في الفم أفسد جمال وجهه بعض الشيء . كان يعلم أنه مقضي عليه ، لذلك أصبح محزوناً جـداً ، قاسياً جداً . وما كنت براغب في العودة الى منزل الخالة كورا لان حفلات العشاء هناك تثير في نفسي كثيراً من الذكريات الاليمة . أما الشخص الوحيد الذي استطيع رؤيته دون كثير من الملل والفتور ، فهو ابنة عمي « رنه » . لقيتها مرة في دار والدي ، وقد أظهرت لي كل لباقة وكياسة ، فلم تتطرق الى حديث الطلاق . كانت تعد اجازتها في العلوم ، ويقال انها غير راغبة في الزواج . كان حديثها الشيق الهام اول شيء صرفني عن ذلك التحليل المستمر للمصاعب العاطفية التي تشغل فكري . لقد شغلت فراغ حياتها بالبحث والدرس وكرست نفسها لمهنة من المهن . لذلك كانت تبدو هادئة راضية مطمئنة . فهل في الامكان اذاً الاستغناء عن الحب ؟ أما أنا فلم أعرف وسيلة في الحياة ، حتى الآن ، سوى التضحية من اجل اوديل . على اني وجدت حضور رنه باعثاً على الرضى

والاطمئنان . طلبت اليها تناول الغداء معي فاجابت مطلبي . وهكذا اخذت القاها مراراً . ولقد أنست بها بعد بضعة اجتماعات ، وتحدثت اليها عن زوجتي بصراحة وصدق ، محاولا بيان ما أحببته في اوديل . سألتني :

ـ أتتزوج مرة أخرى عندما يتم الطلاق ؟

ـ أبداً . وأنت ألم تفكري بعد في الزواج ؟

ـ كلا ، لي الآن مهنة تملأ فراغ حياتي . وانا اتمتع بالحرية ، ثم اني لم أعثر بعد على رجل حاز اعجابي .

ـ واطباؤك الكثر ؟

ـ انهم مجرد رفاق .

أحببت أن أقضي في أواخر شباط بضعة ايام في الجبل . لكنني تلقيت برقية تنبئني ان والدي قد ألحت عليه نوبة مرض جديدة . اسرعت اليه ووجدته في النزع الاخير . لقد عنيت به والدتي بتضحية فائقة . اني ما أزال أذكر الليلة الاخيرة حيث أضاع والدي رشده ، اني لأراها واقفة الى جانب ذلك الجسم الذي لاحراك فيه ، تمسح له جبهته ، وتبلل له شفتيه الملتويتين . لقد دهشت من الاشراق الذي تحتفظ بـه والدتي رغم ألمها العظيم . قلت في نفسي : انها مدينة بهذا الشعور الى حياتها الفاضلة ، فهي لم تبحث عن أية لذة من اللذات التي كانت تسعى وراءها اوديل ، وغيرها من الفتيات اللواتي عرفتهن . لقد تخلت عن الحياة الروائية الخيالية وزهدت في حياة التنقل مذ كانت صغيرة جداً . لذلك تلقى الآن حسن الثواب . القيت نظرة على حياتي الخاصة وقلت : كم هو جميل تخيل اوديل واقفة بالقرب مني ، في آخر هذه الرحلة القاسية ، تمسح جبهتي المبتلة بعرق النزع ، اوديل وقد اشتعل رأسها شيباً ، واشاع تقادم السنين

في نفسها كل سكينة ووقار . فهي تكون قد اجتازت ، منذ زمن بعيد ، مرحلة عواصف الشباب . فهل أكون اذاً وحيداً أمام الموت في يوم من الايام ؟ كم تمنيت ان يحث خطاه الي .

لقد انقطعت عني أنباء اوديل ، حتى عن طريق غير مباشر . لقد أعلمتني أنها لن تكتب الي ، ظناً منها ان الصمت المطلق سيهدىء بسرعة ما أشعر به من ألم وعذاب . كما انها امتنعت عن رؤية اصدقائنا المشتركين . لقد قدرت أنها استأجرت « فيلا » صغيرة بالقرب من التي يسكنها فرانسوا . لكن لم أكن واثقاً من ذلك . وعزمت على ترك منزلنا لأنه واسع بالنسبة الي ، ويثير في نفسي كثيراً من الذكريات . ثم وجدت جناحاً جميلا في فندق قديم بشارع ديروك ، وحرصت على تأثيثه وفق ذوق اوديل . من يدري ؟ لعلها تعود الي يوماً ، بائسة جريحة ، تنشد عندي ملاذاً لها . لقد عثرت ، وأنا أنقل الاثاث ، على قصاصات رسائل كانت اوديل قد تلقتها من اصدقائها . فقرأت هذه القصاصات ، وربما كنت مخطئاً ، لكني لم اقو على دفع الرغبة العنيفة في حب الاستطلاع . ولقد سبق ان أعلمتك ان هذه الرسائل كانت عاطفية ، لكنها كانت بريئة أيضاً .

قضيت الصيف في كانديما في شبه عزلة تامة ، وما كنت لأظفر بشيء من السكينة الا في التمدد على الاعشاب بعيداً عن المنزل . وعندئذ يخيل لي ان جميع الروابط التي تربطني بالمجتمع قد انفصمت عراها ، فاستجيب ، ابرهة وجيزة ، الى حاجات هي اكثر صحة وعمقاً . هل تستحق امرأة كل هذا العذاب ؟ . . لكن الكتب لا تلبث ان تلقيني ، مرة اخرى ، في لجة من تأملاتي الكئيبة . فانا لا أبحث فيها الا عن ألمي ، واختار منها ، بالرغم مني ، كل كتاب قادر على تذكيري بقصتي المحزنة .

عدت الى باريس في تشرين الاول . لقد اعتادت بعض الفتيات زيارتي في شارع ديروك مدفوعات ، كعادتهن ، باغراء الوحدة التي تلف رجلاً من الرجال . لست أريد وصفهن لك ، فلقد مررن بحياتي مروراً عابراً . اما الذي اريد تسجيله لك ، فهو انني وجدت نفسي ، دون اي عناء ، وبشيء من الدهشة ، أسلك مسلك عهد الشباب . لقد تصرفت معهن تصرفي مع خليلاتي في الزمن الذي سبق زواجي . كنت الاحقهن لاهياً عابثاً ، وكان يحلو لي التأكد من تأثير جملة او حركة جريئة ، وكنت عند ما أكسب الجولة سرعان ما انساها ، ثم اشرع في البحث عن جولة اخرى .

لاشيء يدعو الى المجون والاستهتار كحب عنيف فاشل غير متبادل . ولكن ليس كمثله أيضاً ادعي الى التواضع . لقد أثار دهشتي شعوري انني محبوب . والحقيقة ان العاطفة التي تشغل بال الرجل بقوة ، من شأنها اجتذاب النساء اليه في الوقت الذي يكون فيه معرضاً عنهن . انه يغدو جافاً قاسياً فظاً ، ولو كان ، بطبعه ، عاطفياً رقيقاً . ذلك لأن امرأة أخرى تأخذ عليه جوانب نفسه . وقد يتفق ، لشعوره بالتعاسة ، ان يترك نفسه لاغراء عاطفة تعرض عليه . ثم لا يلبث ان تعتريه السآمة ويبدي كل اعياء وفتور ، وبذلك يلعب أخطر لعبة وأرهبها بدون علم منه ولا ارادة . هكذا كان وضعي في تلك الفترة من الزمن . فأنا لم أكن أبداً اكثر اقتناعاً بعجزي عن الارضاء وبزعدي فيه ، ولكن أبداً لم اتلق أمثلة رائعة عن التضحية والحب كما تلقيت في ذلك الحين .

على اني بقيت مضطرب النفس قلق الفكر ، ولم استطع الاستمتاع بلذة هذه الانتصارات . واذا عدت الى دفاتري في تلك السنة (١٩١٣)

فاني لا أعثر ألا على ذكريات لاوديل بين المواعيد المسجلة في جميع الصفحات ، وها اني انسخ لك عرضاً بعض هذه الذكريات :

٢٠ تشرين الاول – كم يحب الانسان الاشخاص الوعرين الصعبين ، وكم هو جميل ان أجمع لها ، بشيء من القلق ، طاقة من ازهار الحقل . كانت تقول لي : « انا اعلم تمام العلم كيف تتمنى ان اكون ... رصينة جداً صافية جداً ... بورجوازية فرنسية كبيرة ... وشهوانية أيضاً ولكن معك فحسب .. يجب ان ترضى بقسمتك ياديكي ، فانا لا أستطيع أن أكون كذلك أبداً . »

« ومع ذلك فان لي بعض الصفات الحسنة ... اني قرأت أكثر من معظم النساء ... واحفظ كثيراً من الاشعار الجميلة ... أتقن تنسيق الازهار . أجيد انتقاء الثياب .. ثم اني أحبك ، نعم ياسيدي ، ربما لا تصدق ذلك ، ولكني أحبك كثيراً » .

٢٨ تشرين الأول – ان ما أحببته في النساء الاخريات هو ما فيهن من شبه لك قليل .

٢٩ تشرين الاول – قد يتفق ان يصيبك الاعياء بسببي ، اني أحب منك أيضاً هذا الاعياء .

ووجدت في مكان آخر هذه الفقرة القصيرة : « لقد اضعت اكثر مما كنت أملك » ، انها فقرة تشرح حالي تماماً . فأوديل الحاضرة ، مهما تكن محبوبة ، لها من الاخطاء والنقائص ما يبعدني قليلاً عنها ، اما اوديل الغائبة ، فتبدو كاملة كربة من الربات ، فاخلع عليها محاسن وفضائل لا تملكها . والاثر الذي احدثته في نفسي المعرفة السطحية وغشاوة الشهوة في زمن الخطبة ، أخذ يحدثه الآن البعد والنسيان . وأراني احب اوديل غير الوفية والبعيـــدة ، اكثر مما كنت أحب ، ويا للاسف ، اوديل القريبة العطوف .

- ٢١ -

علمت آخر السنة بزواج اوديل وفرانسوا . كانت لحظة أليمة ولكن يقيني ان البلاء أصبح ، بعد الان ، دون شفاء ، ساعدني على استعادة الشجاعة لاحتمال الحياة .

لقد بدلت ، بعد وفاة والدي ، كثيراً من أساليب ادارة معامل الورق . لقد خف اشتغالي بها ، وكثرت أوقات فراغي ، فتهيأ لي أن أجتمع باصدقاء الشباب الذين أبعدهم الزواج عني ، وخاصة اندره هالف الذي أصبح عضواً في مجلس الدولة . كنت القى ، بعض الاحيان ، برتران الذي كان ضابطاً في حامية سان جرمن ويأتي لقضاء ايام الآحاد في باريس . لقد حاولت العودة للمطالعة ولبعض دراسات كنت قد أهملتها منذ سنوات عديدة . وكذلك تابعت بعض المحاضرات في جامعة الصوربون . وهكذا اكتشفت أني تغيرت كثيراً ، ودهشت من رؤية المسائل التي كانت تملأ فراغ حياتي ، كيف أصبحت الان لاتثير في نفسي اي اهتمام . وغدوت أسائل نفسي : أكنت فيما مضى مادياً أم مثالياً ؟ ان كل نزعة متافيزيكية تتراءى لي الآن ألهية صبيانية ساذجة .

كنت أرى في ذلك الحين ، كما أخبرتك ، بعض الفتيات بالاضافة الى أصدقائي الرجال . ولقد اشتد اختلاطي بالمجتمع . ولاحظت ، والأسى ملء جوانحي ، انني أنشد المسرات التي كانت اوديل تحاول فرضها علي في السابق باذلة في ذلك كل جهد ومشقة . لقد أخذ كثير

من النساء ، اللواتي تعرفت اليهن في شارع مارسو ، يدعونني لما علمن انني حر وحيد .

ذهبت الساعة السادسة من مساء السبت الى دار هيلين دوتيانج التي كانت تستقبل ضيوفها أيام السبت من كل أسبوع . وقد دعا موريس دوتيانج بعضاً من زملائه النواب . وكان يرى الى جانب رجال السياسة كثير من الأدباء ، وهم اصدقاء هيلين ، وكثير من رجال الاعمال لان هيلين ابنة رجل صناعي . وكانت مودة كبيرة تربط بين جميع هؤلاء الاشخاص الذين يترددون على هذا المنتدى . وكان يروق لي الجلوس الى جانب فتاة آخذ معها في تحليل العاطفة وسرد دقائقها . ان جرحي ما زال يؤلمني ، ولكن قد يتفق أن تمر أيام بكاملها ، ولا أفكر في اوديل ، أو في فرانسوا . كنت أستمع بعض الاحيان الى حديث الناس عنها . فاوديل تدعى الان السيدة دوكروزان . ثم هناك أشخاص لا يعرفون انها كانت امرأتي ، وكانوا قد التقوا بها في طولون حيث اشتهرت بجمالها الرائع ، لذلك يأخذون في سرد الاقاصيص عنها ، وعندها تحاول هيلين دوتيانج اسكاتهم أو اشغالي ، أما أنا فكنت أحب الاستماع اليهم .

كان الاعتقاد السائد ان حياتها الزوجية لا تسير سيراً حسناً . وقد طلبت الى ايفون برفوست ان تقص لي بصراحة تامة عما تعرفه عنها ، فهي تقضي بعض الوقت في طولون ، قالت بتحفظ :

— انه صعب عسير أن أشرح لك ذلك . اني لم أرها ألا لماماً .. وشعوري الخاص ان كلا منها قد أدرك أنه ارتكب ، باقدامه على الزواج ، خطأ كبيراً . ومع ذلك فهي تحبه ... اني استمحيك عذراً لهذا القول ، ولكن أنت الذي طلبت مني ذلك . نعم انها تحبه على

التأكيد أكثر مما يجبها . ولكنها لم ترد أن تظهر له ذلك لانها ذات انفة وكبرياء . لقد تناولت مرة الطعام عندهما ، فلحظت ان الحديث كان بينهما شاقاً عسيراً ... كانت تتكلم بلطف وظرف ، وفي سذاجة أحياناً ، هذه السذاجة التي طالما أعجبتك . اما فرانسوا فكان يجافيها ويزجرها ، انه فظ غليظ في بعض الاحيان . واؤكد لك ان حالتها هذه قد آلمتني كثيراً ... كانت تسعى جهدها لمرضاته والتحدث اليه في موضوعات تثير اهتمامه ... ولما كانت لا تجيد الحديث في مثل هذه الموضوعات ، كان فرانسوا يجيبها بتململ وازدراء قائلا : « نعم ، اوديل ، نعم ... » لشد ما تألمنا من أجلها ، انا وروجه .

لقد قضيت شتاء ١٩١٣ – ١٩١٤ بأكمله باتصالات مع النساء وباسفار لاعمال ليست لها ، في الواقع ، ضرورة ماسة ، ثم بدراسات لم تكن عميقة أبداً . كنت زاهداً باي عمل جدي ، وكنت لا أتناول الافكار والاشخاص الا تناولا خفيفاً رفيقاً ، وبحيطة وحذر ، وذلك كيلا أتألم عند فقدها ، لاني كنت دوماً على استعداد لفقدها .

بدأت هيلين دوتيانج تستقبل ضيوفها في الحديقة منذ شهر ايار . كانت تلقي بالوسائد الى النساء ، وكان الرجال يجلسون على العشب النضير . لقيت عندها ، في السبت الاول من ايار ، مجموعة بهيجة من الكتاب والسياسيين يحيطون بالاب سنيفال . جاء كلب هيلين وقعد عند أقدامها فقالت جادة :

– أللحيوانات أرواح ياسيدي الأب ؟ اذا لم يكن لها روح ، فكيف أعلل العذاب الذي قاسته كلبتي ؟

– نعم ياسيدة ، فكيف تريدين ألا يكون لها أرواح ؟ ان لها روحاً صغيرة جداً .

كنت أجلس بعيداً الى جانب سيدة امريكية تدعى بياتريس هول نستمع الى الحديث فقالت لي :

- أنا متأكدة ان للحيوانات روحاً . . . في الواقع ليس هنـــاك كبير فرق بيننا وبينها . . . هـــذا ما قلته لنفسي منذ قليل ، اذ قضيت مـا بعد ظهيرة اليوم في حديقة الحيوان . فانا أحب الحيوانات حباً جماً يا مارسنا .

- وأنا أحبها أيضاً ، هل تريدين الذهـــاب الى هناك معـــاً في يوم من الايام ؟

- بكل سرور ... بماذا كنت اتحدث اليك ؟ آه ! نعم : لقد تأملت في هذه الظهيرة تلك الحيوانات البحرية التي كانت تدور على نفسها تحت الماء ، ثم تظهر رؤوسها للتنفس كل دقيقتين ، لقد رثيت لحالها ، وقلت في نفسي : « يا للحيوانات المسكينة ! اية حياة مملة رتيبة هذه ؟ » ثم فكرت وقلت : « ونحن ؟ ماذا نعمل ؟ اننا ندور على انفسنا تحت الماء طوال الاسبوع ، وفي الساعة السادسة من يوم السبت نطل برؤوسنا عند هيلين دوتيانج ، والثلاثاء عند الدوقة روان ، والاحد عند السيدة دومارتل ... فالامر متشابه جداً ، الا ترى ذلك ؟ »

في هذه اللحظة ابصرت القائد برفوست مقبلا ، هو وزوجته ، لقد أذهلني وضعهما الرصين المتجهم . كانا يسيران بقلق واضطراب ، كأن حصى الحديقة سريعة العطب تحت أقـــدامهما . قامت هيلين لتحيتهما ، وأخذت أتأملهـا لاني أحب منها هـــذه الحيوية الظريفة التي تستقبل بها ضيوفها . كنت أقول لها دوماً انهـا أشبه بفراشة بيضاء لا تمس الناس الا بخفة ورفق .

شرع برفوست وزوجته يتحدثان الى هيلين ، ولاحظت ان وجهها قد

طبع بطابع الجد والصرامة . أخذت تتطلع حولها بارتباك ، وعند ما أبصرتني ، حولت نظرهـــا عني ، ثم ابتعـــدوا بضع خطوات .

قلت لبياتريس هول :

ـ هل تعرفين اسرة برفوست ؟

ـ نعم ، كنت عندهم في طولون . ان لهم منزلا قديما ساحراً .. وانا احب مرفأ طولون ، واحب البحر ، وتلك الدور الفرنسية القديمة .. يالله من مزيج رائع جداً .

انضم الآن الى هيلين وبرفوست اشخاص كثيرون ، والفوا حلقـــة اخذت تتحدث بصوت مرتفع ، وخيل لي اني سمعتهم يتلفظون باسمي ، قلت لبياتريس :

ـ ماذا دهاهم ؟ هيا لنرى .

اعنتها على النهوض وعلى انتزاع بعض الاعشاب العالقة بثوبها . عندها أبصرتنا هيلين دوتيانج وتقدمت مني قائلة لبياتريس :

ـ استسمحك عذراً ، أريد أن أسر كلمة الى مارسنا ... اسمع ، اني آسفة أن أكون المرأة الاولى التي تحمل اليك نبأ سيئاً رهيباً .

لقد أخبرني برفوست الان أن امرأتك ... ان اوديل قد انتحرت هذا الصباح في طولون بطلقة من مسدس . صحت :

ـ اوديل ! يا آلهي ، ولماذا ؟

تمثلت جسم اوديل اللدن وقد اخترقه جرح دام بليـغ ، ودارت في راسي جملة : « تحت تأثير ايار ، قضي عليها بحزن والم ... » .

قالت هيلين :

ـ لا علم لنـا بذلك ، اذهب دون وداع أحد ، وعندما ينتهي الى علمي شيء جديد سأخبرك به هاتفياً .

أخذت أسير على غير هدى نحو الحرش ، ماذا حدث ؟ يا للفتاة المسكينة ! لماذا لم تناديني اذا كانت بائسة ؟ وبأية غبطة جنونية كنت أهرع لمعونتها فآخذها الى منزلي وأواسيها ! لقد أدركت منذ اليوم الاول الذي رأيت فيه فرانسوا انه سيكون أسوأ حارس لاوديل . اني اتخيل ذلك العشاء وأشعر شعوراً قوياً باني كنت الأب الذي قاد ابنته ، بخرق وغباوة ، الى وسط موبوء . لقد أدركت ، ذلك اليوم ، ان من الواجب انقاذها باسرع ما يمكن . ولكني لم أنقذهـا . . . اوديل ميتة ... كانت النساء السائرات يحدجنني بنظرات قلقة . وربما كنت اتكلم بصوت عال ... اي قدر من السحر والجمال . . . لقد تخيلت نفسي الى جانب سريرها آخذاً يدها وهي تتلولي هذين البيتين :

من أعمـــاق حبي الشديـد للحيـــاة

ينبعث في نفسي شعوران : الخوف والرجاء

ثم تقول بصوت يقطعه الاسى : أنا ذلك النهر التعب يا ديكي . فاجيبها :

– لا تقولي ذلك يا عزيزتي ، انك ستدفعينني الى البـكاء . اوديل ميتة ... كنت أنظر اليها بخوف متشائم منذ أن عرفتها . انهـا جميلة جداً ... قال لنا يوما بستاني عجوز : « ان أجمل الورد أسرعه ذبولا .. » اوديل ميتة ... قلت لنفسي : حبذا لو أستطيع رؤيتها ربع ساعة ثم أقضي نحبي بعد ذلك راضيا مسروراً .

لم أدر كيف عـدت الى منزلي ، ولا كيف القيت بنفسي على السرير . وعند الفجر غلبني النوم ، ورأيت ، فيما يرى النائم ، انني

تناول العشاء عند الخالة كورا . كان هناك اندره هالف ، وهيلين دوتيانج ، وبرتران ، وابنة عمي رنه . أخذت أبحث عن اوديل في كل مكان . وأخيراً ، وبعد قلق طويل ، أبصرتها مستلقية على اريكة . كانت شاحبة ممتقعة ، وتبدو انها مريضة جداً ، قلت في نفسي : نعم انها تتألم ، لكنها ليست ميتة . يا له من حلم رهيب !

- ٢٢ -

كان أول خاطر خطر لي ، أن أذهب الى طولون منذ صبيحة اليوم الثاني . لكني بقيت ثمانية أيام مصاباً بالحمى والهذيان . وقد عني بي برتران واندره عناية كلها تفان واخلاص . وعادتني هيلين مرات عدة وحملت الي الازهار . سألتها بالحاح عندما شفيت ان تطلعني عما لديها من أخبار . ان الاخبار التي سمعتها ، والتي سمعتُها أنا أيضاً فيما بعد ، كانت متناقضة جداً .

الحقيقة ، على ما يظهر ، ان فرانسوا سرعان ما أصابه الملل والاعياء من الزواج لانه قد اعتاد حرية واسعة . لقد خيبت اوديل ظنه . لقد عودتها الدلال ، وتراءت له امرأة ملحاحاً ، كثيرة التطلب في الوقت الذي لم يكن فرانسوا يحبها الا بمقدار قليل . كان يعتقد فيها الذكاء ، ولم تكن هي كذلك بالمعنى المعروف لهذه الكلمة على الاقل . وكنت أعلم ذلك ، ولكن الامر سيان بالنسبة الي . كان يود ان يفرض عليها نمطاً خاصاً في التفكير والسلوك . لقد كانا دوماً على خلاف وشجار شديدين ، لان كليهما ذو صلف وكبرياء .

وبعد زمن طويل - ستة اشهر على التقريب - نقلت الي امرأة حديثاً كان فرانسوا قد أسره لها عن اوديل . قال لها : « انها جميلة جداً وقد أحببتها حقاً . ولكن زوجها الاول أساء ترويضها ، فهي مفناج دلوع لحد الجنون . انها أول امرأة سببت لي العذاب . .. لقد دافعت عن نفسي ... وأخذت في تشريحها واظهار حقيقتها ، كانت

أمامي على المنضدة عارية واضحة ... لقد اطلعت على جميع أكاذيبها الصغيرة ... وأظهرت لها انني اكتشفت هذه الاكاذيب ... كانت تعتقد انها بسحرها وجمالها ، تستطيع الاستيلاء علي ... وأخيراً اعترفت بهزيمتهـــا ... اني آسف ، بالطبع ، لما حصل ولكني مرتاح الضمير ، فانا لا أستطيع عمل شيء في هذا الصدد . »

لقد أثار فرانسوا الرعب في نفسي عندما علمت بهذا الحديث ، ومع ذلك فقد يتأتى لي أن أعجب به بعض الاحيان . لقد كان أشد مني قوة ، وربما أكثر ذكاء . كان أشد قوة على الأخص ، لانني فهمت اوديل كما فهمها ، ولكن الفرق بيننا ، انه لم تكن لي الشجاعة على مكاشفتها بذلك . أو جرأة فرانسوا خير من ضعفي ؟ اني ، بعد طول امعان وتفكير ، لست آسفاً على شيء من تصرفاتي مع اوديل . ان التغلب على الناس ودفعهم الى هاوية اليأس لأمر سهل يسر . وانا ما زلت اعتقد الآن ، برغم الصدمة التي أصابتني ، انه من الافضل سلوك طريق المحبة بالرغم عمن نحب .

كل هذا لم يفسر لي سبب انتحار اوديل تفسيراً واضحا . الثابت ان فرانسوا لم يكن في طولون يوم انتحارها . لقد اجتمع برتران بغلام كان قد تناول طعام العشاء عند اوديل عشية يوم الانتحار ، وقد فهم منه ان المائدة كانت تضم ثلاث نساء وثلاث ضباط من البحرية . كان الحديث مرحاً بهيجـاً . وكانت اوديل تعب من الشمبانيـا فقالت لمن حولها وهي ضاحكة : « اتعلمون انني سأنتحر غداً عند الظهيرة » .

كانت هادئة طوال السهرة ، وقد لاحظ ذلك الغلام الاشعاع الاخاذ لجمال اوديل المشرق .

بقيت مريضاً مـدة شهر ، ثم سافرت الى طولون . زرت قـبر

اوديل مرات عديدة ، وغطيت قبرها بالازهار البيضاء . التقيت في المقبرة ، ذات مساء ، بامرأة عجوز ، فاخبرتني انها كانت خادمة للسيدة كروزان ، وانها تعرفني اذ رأت صورتي في خزانة لسيدتها . وأعلمتني ان اوديل كان يتملكها اليأس حين تخلو الى نفسها ، بالرغم مما تظهره للناس من مرح شديد . واضافت العجوز قائلة : « عندما كنت أدخل غرفة السيدة كنت أجدها ، بعض الاحيان ، جالسة على أريكة آخذة رأسها بين كفيها ... كأنها كانت تنظر الى شبح الموت . »

لقد تحدثت مع هذه المرأة حديثاً طويلاً ، وعلمت بسرور كبير انها كانت تحب اوديل حباً عظيما .

لم أستطع أن أعمل شيئاً في طولون . ثم عزمت في مطلع تموز ان أذهب الى كانديا لأقيم فيها . وهناك حاولت العمل والمطالعة ، وقمت بنزهات طويلة في البراري ، كنت لا أظفر بالنوم الا بعد التعب الشديد .

ظل طيف اوديل يمر بي كل ليلة تقريباً ، كنت أرى نفسي ، اغلب الاحيان ، في كنيسة او في مسرح ، وكان المكان خالياً الى جانبي ، فأقول فجأة : « اين اوديل ؟ » ثم آخذ بالبحث عنها ، فلا أرى الا نساء شعثاً شاحبات ، لا تشبه اية واحدة منهن اوديل ، عندها أستيقظ .

كنت لا أعمل شيئاً ، ولا أذهب الى المعمل اصلاً . وكنت لا أرغب في رؤية أي انسان ، وأحب حزني وغمي . كنت أنزل الى القرية كل صباح ، وكان يتناهى الى مسمعي من الكنيسة صوت ارغن عذب ، يتموج ويختلط مع النسيم محدثاً دمدمة حلوة . كنت أتخيل اوديل الى جانبي بثوبها الابيض المشرق ، ذلك الثوب الذي كانت ترتديه في نزهتنا الاولى بين اشجار السرو السوداء في فلورنسا .

لماذا أضعتها يا ترى ؟ كنت افتش عن كل كلمة أو ايماءة جعلت من ذلك الحب العظيم هذه القصة الحزينة الاليمة . لكني لم اعثر على شيء .

وفي يوم سبت من شهر آب ، سمعت ، وانا اقوم باحدى هذه النزهات الخلوية في شارذوي ، سمعت صوت طبل يدق ورأيت خفير الاحراج يصبح : « التعبئة العامة لجيوش البر والبحر » .

[redacted]
موروا ،اندريه
اجواء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032004

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

[redacted]

General Library